

الكتاب العربي السعودي ٤٣

عبد الله بوقس



مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م



بسم الله الرحمن الرحيم



الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤


خدعتني حبا



مقدمة

القصة فن رفيع عرفه العرب من قديم الزمان وقصص «ألف ليلة وليلة» و«الزير سالم» و«سيف بن ذي يزن» التي كانت حديث الركبان ومنشدي كل عصر، سبقت مثيلاتها في دنيا الشرق والغرب حتى قيل إن قصة «روبنسون كروزو» مستوحاة من «حي بن يقظان» لابن طفيل. والقصة تصوير للحياة بشتّى مظاهرها وأبعادها، لهذا كانت أقرب إلى القلب والنفس من ألوان الأدب لما تحويه من انفعالات وخيالات. وأبناؤنا السعوديون قد خاضوا غمار هذا اللون من الأدب بكل أنواعه، وإن كان الإنتاج المطبوع قليلاً إذا قيس بما أخرجته المطابع من روائع القصص الأدبي لعمالقة هذا الفن من الأدب في عالمنا العربي.

ومن روادنا الأوائل في مجال القصة الطويلة المغفور له الأديب «حامد دمنهوري» في قصته الرائعة «ثمن التضحية» وأستاذ الجيل من الأدباء المغفور له «محمد حسن عواد» في «لمياء» وهي مقالات اجتماعية ولكنها أقرب الألوان إلى الفن القصصي ومن المعاصرين الأديب «سيف الدين عاشور» في قصته الطويلة «لا تقل وداعاً» والأديب الشاعر «حسن القرشي» في قصته «عاصفة» والأديب «سعد البواردي» في قصته «من يكون أبي يا أماه؟» والأديب الكاتب الشاب «عبد الله عبد الرحمن جفري» في قصته «الكارثة شيء بسيط» والأديب «ابراهيم الناصر» في قصته «خلود».

وغيرهم من الأدباء ممن لا تحضرني أسماؤهم وأسهموا في أدب القصة بشتى ألوانها وأنواعها وكان طابع البيئة الاجتماعية بتقاليدها وعاداتها الأصيلة ومُثُلها الطيّبة ومشكلات المجتمع وقضاياه الإنسانية والفكرية والاجتماعية متميزاً في كل ما كتب

هؤلاء الرواد من الأدباء من قصص، وعلى مضي الزمن وما نراه اليوم من نهضة أدبية كبرى في بلادنا، وتشجيع للأدباء والعلماء والمفكرين على نشر إنتاجهم يواكبها نهضة تربوية وعلمية وثقافية سامية مما يشعّ بالخير الكبير، ويحقق دعامة كبرى لأصالة أدبنا وفكرنا.

والقصة القصيرة أروع ما فيها أنها تجسد حياة فرد أو أسرة أو مجتمع قد يكون أشخاصها أحياء أو في دار الفناء، أو فكرة تعيش في خيال الكاتب ولكنها قلّ أن تخرج كثيراً عن دنيا الواقع.

وهي كلما اقتربت من الواقع كلما كانت أكثر وقعاً وتأثيراً في النفس البشرية. وأخطر هذه القصص حين يجنح خيال الكاتب فيخرج بها عن فلك الواقع إلى آمال وأحلام أو يصور الفضيلة رذيلة والسعادة تعاسة والحب العفّ خسّة ونذالة.

ومن المؤسف أن أمثال هذه القصص والتي لاتعدو أن تكون محاكاة لتقاليد الغرب قد صادفت رواجاً في عالمنا العربي والإسلامي، وأفسدت مجتمعات نقيّة طاهرة وغمستها في حمأة الرذيلة.. وحين أمسكت بالقلم في محاولة لطرق الباب في كتابة القصة القصيرة، شعرت بإحساس غريب يشدّني إلى واقع الحياة بكل أفراحه ومآسيه.. فالحياة طالما شدّتني في كل ما كتبت سواء في التربية والتعليم أم في الأدب المسرحي، وما كنت راغباً في هذا اللون من الكتابة لِمَا تحتاج إليه كتابة هذا النوع من القصص من أساليب بلاغية رفيعة قد لا يسعفني فيها القلم،ولكن الصديق الأخ «حسن خازندار» مدير الإذاعة السعودية أصرّ على أن أطرق هذا الباب في برنامج «قصة الأسبوع» الذي كان ضمن خطّة البرنامج الإذاعي ووقع اختياره عليَّ ولم أجد بدًّا من الإذعان لتحقيق رغبته.

وقد كنت اخترت لمجموعة هذه القصص عنوان «آهات ودموع» لأن كل قصة فيها لاتخلو من آهات ودموع قد تكون دمعة فرح أو أسى، غير أني فضلت عنوان «خدعتني بحبها» إذ هو عنوان أبرز هذه القصص. وهي على أية حال محاولات في

كتابة القصة القصيرة مضى على كتابتها ما يربو على عشر سنوات وكانت حبيسة مكتبي لولا إصرار الصديق الأستاذ «محمد سعيد طيب» مدير عام تهامة على إخراجها ضمن سلسلة الكتاب السعودي.

وقد كنت أفضل أن أعيد كتابتها من جديد في أسلوب آخر ولكن مشاغل العمل الرسمي حالت دون تحقيق هذه الرغبة، فعذراً للقارىء الكريم،وأرجو أن أتمكن في المستقبل من الاستمرار في هذا اللون من الأدب القصصي،فهو القصة المسرحية التي أحببتها والتي أرجو أن يتاح لي فراغ من الوقت للاستمرار فيها، فما أشد حاجة أدبنا السعودي إلى مزيد من أدب القصة والمسرح!

وفي تاريخنا القديم والحديث وفي مجتمعنا الكبير منهل عذب لا ينضب كلما غرفنا منه ازداد عذوبة، ونما أدبنا أصالة،ذلك أن مجتمعنا القديم والجديد حافل بألوان من الحياة الإنسانية الزاخرة بالمعارف الإنسانية والأخلاقيات الرفيعة التي قلّ أن تجدها في أي مجتمع آخر.

والله ولي التوفيق.

عبد الله بوقس







وفـــاء

وقفت في خفر وحياء أمام نافذة غرفتها المطلّة على البحر.. تتابع بعين فاحصة مدقّقة عقارب الساعة.. ومع دقّات كل ثانية يخفق قلبها كالطير.. بينما راح النسيم العليل يداعب خصلات شعرها المتهدّلة،وعلى صفحة الماء قارب صيد يتهادى مع موج البحر الهادىء..

وحين قاربت الساعة تشير إلى الثامنة.. أسرعت إلى المرآة تتأمل نفسها، وتصلح هندامها وتمشط شعرها الذي عبث به النسيم حتى إذا دقّت الثامنة تماماً.. راحت تتابع في شوق ولهفة الشاب النحيل الوسيم الذي يسكن في العمارة المواجهة لها أثناء عودته من الجامعة!! مرحى لك يا هشام.. كم أغبطك على هذا الهدوء والوقار!! إن في عينيك رجولة وشهامة.. آه.. كم أتمنى أن يكون شباب بلادي على نمطك!! إنك من معدن نفيس وأصل طيّب، ومن بلد تهفو إليها القلوب شوقاً.. ترى هل تحسّ بي يا هشام..؟ متى الأيام تجود علينا باللقاء.. لنعرف بعضنا عن كثب؟. إنني أحس من أعماق فؤادي أننا متقاربان فكراً وروحاً.. لكم وددت أن أصارحك بما في نفسي وبالحب الكبير الذي أكنّه لك في أعماق قلبي.. ولكنني لا أستطيع.. فلست من ذلك الصنف الرخيص من البنات اللاتي يلذّ لهن الإطراء والمعاكسة.. وعلى فرض أنّي حاولت هذا.. فلن ينالني منك إلا نظرات السّخط والازدراء.. إنني لن أنسى ذلك اليوم العاصف الذي لقنت فيه جارتك الحسناء «هيفاء» درساً قاسياً لن تنساه مدى الحياة، حين حاولت بحركتها ودلالها العابث أن تثير اهتمامك.. وكان نصيبها نظرات ملؤها الجفاء.. جعلت المسكينة تتخبّط في مشيتها وتهرع منكمشة إلى سكنها، وهي تحتقر نفسها.. تلعن الساعة التي قابلتك فيها.. أما أنا فكان يوماً حبيباً بالرغم من بشاعته وقسوته وفظاعته.. لقد كان يوم ميلاد حبي الكبير لك..

لقد أعجبني فيك ذلك الصمود أمام الإغراء والفتنة.. وهو ما لم يتوفر في شباب هذا اليوم.. إنني أحس بانجذاب نحوك.. لأنك على شاكلتي.. فما من شاب تعرّض لي إلا وألقمته حجراً حتى بات الكل يخشاني ولا يجرؤ على مخاطبتي.. وكم سبّب لي هذا من متاعب مع أمي.. إنها تتّهمني بالجمود والغفلة والبلاهة.. ولولا ما أشعر به من حنان الأب وحدبه وتشجيعه لي على السير في هذه الطريق السوية لتعقدت نفسيتي وتحطمت كل آمالي في الحياة.. كم أنا سعيدة أن أعثر على شاب نبيل مثلك!! حقاً إن الطيور على شبيهاتها تقع!!. وأعجبها المثل الذي جادت به قريحتها، فأخذت تضحك ملء فيها بينما راحت أمها ترقب كل حركاتها وسكناتها دون أن تحس بوجودها، حتى إذا غاب ظل هشام عن عينيها، ودّعته وعلى مآقيها دمعة تدحرجت كحبّات اللؤلؤ على صفحة خدها الناصع..

ورمقتها الأم بنظرة حادة لها معناها، ثم قالت لها: أهذا هو الشاب الذي ملأ عينيك دون الناس كلها..! يالك من فتاة غرة حمقاء!! أتحسبين هذا الصنف من الشباب يروق لك.!؟

ما أثقل دمه!! إنه جلف غليظ القلب.. جامد كهدوء الصحراء الذي جاء منها أتحسبين أني أوافق عليه لو تقدم يطلب يدك..؟! إن هذا من رابع المستحيلات أتظنين أني بلهاء لأهبك لقمة سائغة لهذا الشاب الغريب المتعجرف؟!. ما أشد الفارق بينه وبين أخيه الأكبر!!. فأخوه مهذب قد أثمرت فيه تربيتنا الصالحة فأحالته إلى شاب بشوش خفيف الظل سريع البديهة حاضر النكتة.. اسمعي يا بنتي: حذار أن تفكري في هذا الأهوج.. فأنت فتاة رائعة الجمال حلوة.. فحرام أن تعذبي نفسك من أجل إنسان لا يعيرك أي اهتمام، أو حتى مجرد نظرة عابرة..

ولم تحتمل «هناء» هذه القسوة من أمها.. وعزّ عليها أن يتحطم حبها على صخرة كبرياء وعناد هذه الأم وهي تسمعها الجارح من الكلام اللاّذع في حق إنسان وهبته قلبها وحبها.. فاندفعت إلى غرفتها باكية تندب حظها العاثر وأملها الضائع في هذه الحياة.. واحتجبت أياماً في غرفتها تحبس آلامها في صدرها.. وما درت المسكينة أن

«هشاماً» كان يرقبها من طرف خفي دون أن يجعلها تحسّ به.. كان يشعر أنها الفتاة التي تروق له، و يلتقط أخبارها من زملائه الذين كانوا يدرسون معها في كلية واحدة وكان يشعر بالفخر والاعتزاز وهو ينصت إلى تعليقات زملائه، وكيف أنها الفتاة العنيدة القوية المحافظة التي أجبرتهم على احترامها؟.. ولم تدع شاباً يجرؤ على الاقتراب منها لمعاكستها..

و بدأ حبها يسري في قلبه وروحه.. و ينفذ إلى أعماقه.. وكان يحس بأنها قريبة لقلبه وروحه وكم عزّ عليه أن يفتقدها أياماً فلا يراها كعادتها تنتظر أوبته، فيطيل النظر إلى نافذتها، ثم لا تلبث أن تطل عليه الأم متحدّية بنظرة قاسية، ثم تقفل في عنف شباك النافذة.. و بقدر حبّه «لهناء».. كان يكره أمها لقسوتها.. وأدرك أن وراء احتجاب فتاة أحلامه.. أمها.. وأخذ يفكر في وسيلة يصل بها إلى الإنسانة التي عذّبه حبها.. وشاء حظه الطيب أن تزوره أمه لتقضي معه عطلة الصيف.. ووجدها فرصة طيبة لتوثيق عرى الصداقة بين الأسرتين.. ولكن كيف السبيل إلى ذلك..؟! وهو يجهل تقاليد هذا البلد.. وخاصة مع فتاة أحلامه وأسرتها المحافظة.. ولكنه لم ييأس.. ظل يعمل فكره طويلاً ليصل إلى حل سريع.. و بدأ خطواته الأولى.. صارح أمه.. «أمينة» بحبه لهذه الفتاة ورغبته أن يقترن بها. إذ لا شيء يعوقه أمام هذا الزواج.. فالليسانس قد ناله بنجاح وتفوق.. و بعد شهور سيتقدم لامتحان القبول للماجستير.. إنه يخشى أن تفلت منه.. أن يزوجها والدها لأول خطيب يتقدم لها.. وستحاول الأم التي تحتقره أن تكره ابنتها على الزواج حتى تتخلص منه وماذا بوسع فتاة مثلها أن تفعل إذا ضيّق عليها الخناق؟؟ إنها لا تستطيع أن تعارض. ستجد نفسها أمام الأمر الواقع..

لا بد أن أجد الحل السليم لإنهاء هذا العذاب.. و بدا على محياه مسحة من الألم، ونظرت إليه الأم في حنان بالغ، ووعدته بأن تنتحل أي عذر لتحقيق ما يريد.. و بات هشام على جمر الغضى.. حاول أن ينام ولكن خيال الحبيبة لا يفارقه..

وفي الصباح الباكر.. اصطحب معه أمه ليريها معالم البلد وآثارها التاريخية. و بينا

هما سائران إلى المحطة ليستقلا الحافلة العمومية.. تمت المفاجأة غير المتوقعة إذ أقبلت هناء ووالدها إلى المحطة.. وتلاقت الأعين بعد طول ترقب واشتياق وكان لقاء حاراً يحمل في طيّاته العتاب.. ووجد هشام الفرصة مواتية.. فأقبل على والد هناء يحييه.. ثم قدم نفسه إليه وبدأ يوجه له بعض أسئلة عن سير خط الرحلة وكأنه يجهل كل شيء.. وانتهزت الأم الفرصة وأخذت تتجاذب أطراف الحديث مع «هناء».. وركب الجميع الحافلة واتخذ هشام مكانه بجانب والد «هناء»، ليتم لوالدته أن تتعرف على الإنسانة التي أَسَرَتْ لبّه.. وقد أعجبت بها الأم.. إنها فتاة مهذبة رقيقة الحاشية محتشمة مثقفة، وهي على جانب عظيم من الجمال لذا دعتها لزيارتها بلهفة.. وكان هشام يختلس النظرة إليها بين فينة وأخرى ويستمع إلى حديثها العذب بكل انسجام وحرص..

وأفاق هشام من نشوته الحالمة على صوت والد «هناء» وهو يودعه.. وتلاقت الأعين من جديد.. وكان تعبيراً صادقاً ملؤه الحب والرضى..

وكان هذا اللقاء العابر تأكيداً لحبهما المتأصل في أغوار النفس، وتمنى لو لم تقف الحافلة لتمضي بهما إلى دنيا السعادة والخلود.. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.. وذهب كل إلى سبيله مودعاً إياها بنظرات لاهفة مشوقة، وقلب خفاق.. حتى غابت في الزحام..

والتفت إلى أمه ليعرف رأيها.. وقرأ في عينيها ابتسامة الرضى والقبول.. وسار مع أمه تغمره النشوة والفرح، ولم يترك مكاناً جميلاً أو آثاراً خالدة من معالم هذه المدينة إلا وأطلع عليها أمه.. وعادا إلى شقته الهادئة الأنيقة ليرسم الخطوط العريضة لمستقبله الباسم، وكله أمل وثقة في نجاحه وتحقيق كل ما يتمناه. وأغمض عينيه الساهرتين على خيالها الساحر واسترسل في نوم عميق آملاً في لقاء الغد المأمول.

وفي غسق الليل البهيم حيث السكون يخيّم على الكون كله.. إذ بالباب يطرق في شدة.. وصحا هشام من نومه مذعوراً.. وراح قلبه يدق في عنف بينما نهضت الأم

وأطرافها ترتعش فرقاً.. وانسل هشام إلى الباب على عجل.. وأبصر موظف التلغراف فوقف مشدوهاً.. وتناول المظروف منه.. وبيد مرتعشة راح يفض المظروف وغامت الدنيا أمام عينيه.. واقتربت أمه وجسدها يرتجف، وقالت: خيراً يا بني.. أرجوك أن تخبرني.. إن قلبي يحدثني أن أحداً من الأسرة ناله مكروه.. يا إلهي تكلم يابني!!. وفي نبرات تنم عن ألم بالغ.. قال:

أبي مريض يا أماه.. وقد نقل إلى المستشفى ويطلب مني الحضور فوراً.. وامصيبتاه!.. لطفك يارب..

هيا يا هشام.. رجوتك أن تسرع للحجز لنا على أول طائرة.. وأذهل هشام النبأ المفجع.. وتبخرت أحلامه.. وأمضى باقي الليل يسطر «لهناء» رسالة مطولة بثها مكنون فؤاده ولواعج حبه.. وشرح لها ما ألم به من آلام فادحة، ووعدها بأن يتقدم لخطبتها بعد عودته من بلده.. وسلم الرسالة لبواب عمارتها وهو في طريقه إلى المطار.. وكم كان يودّ إلقاء نظرة عليها وتوديعها.. ولكن الوقت ضيق لا يسمح بالتأخير..

وأمضى هشام شهراً في الوطن العزيز.. حتى تماثل والده للشفاء.. واستأذن للعودة لإكمال دراسته ولم يصدق أن تطأ قدمه أرض الحبيبة حتى أسرع إلى داره وألقى بأمتعته جانباً ومضى إلى الشارع يتابع بعينيه نافذتها المطلّة على البحر.. ووجد شخصاً غريباً يطل منها.. وغلى مرجل غيظه..

ترى من يكون هذا الشاب الغريب..؟! إنه لم ير هذا الوجه من قبل.. أهو منافس جديد في حبي لها.. لا.. إن «هناء» تحبني.. فمحال أن تتزوج غيري. وأسرع إلى بواب العمارة مستفسراً.. وسقط في يده.. لقد غادرت «هناء» البيت من أسرتها إلى حي آخر ولم تترك عنوانها.. وتذكر البواب الرسالة التي حرصت هناء على أن تدسها في يده وهي تغادر البيت ليسلمها لهشام.. وخطف منه الرسالة وأسرع إلى داره ليخلد إلى نفسه مع أول رسالة تصله من حبيب القلب والفؤاد..

وأخذ يقرأ رسالتها.. ويتأمل صورتها الجميلة التي أودعتها باطن الرسالة. وفهم أن رسالته لم تصل إليها.. وأنها رغم هجرانه لها وهروبه منها.. إلا أنها لن تنساه.. ستظل

وفية لحبه إلى الأبد.. إلا إذا شاءت الأقدار أن تكره مرغمة على الزواج.. وحاول عبثا أن يهتدي إلى عنوانها الجديد من خلال رسالتها.. ولكنه لم يجد شيئاً.. وعاد إلى العم خليل البواب يستفسر عن مصير رسالته.. وفهم أن والدتها هي التي تسلمتها منه.. ليت شعري.. ماذا فعلت بأمها حتى تخفي رسالتي عنها؟.. وأخذ يجدّ في البحث عنها في كل مكان.. حتى كلّت قدماه.. لقد اختفت إلى الأبد.. وأحسّ بامتعاض شديد لم يعد يهنأ له نوم أو يروق له طعام. ظل انطوائياً بعيداً عن المجتمع والناس.. يناجي صورتها الحبيبة.. أجمل تذكار أهدته إياه..

وعاش في خضم الحياة وأعباء العمل سنوات.. وكان يحرص على أن يقضي إجازته في كل عام في بلد الحبيبة الغالية.. هل الأقدار تجود عليه باللقاء لتكمل سعادته؟ ولكنها لم يعد لها أثر في الوجود.. وحاول الأهل والأصدقاء أن يقنعوه بالزواج ما دام في عنفوان الشباب، ولكنه لا يزال يفكر في هناء..

وطالت فترة الانتظار.. وبلغ اليأس حدّه.. ووجدت أمه الحبيبة أن ثمّة تقارباً في الشبه بين من أحبّها وابنة عمّه.. الوافدة الجديدة مع عمها الغائب عن الوطن فترة طويلة.. ورآها ولم تصدق عيناه أنها صورة مصغرة من هناء.. ولكنها ليست هي واقتنع أخيراً ورضي بالأمر الواقع.. وتزوج ابنة عمه، وأخلص لها وأحبها بكل جوارحه وأنجب منها طفلين في عمر الزهور.. ملآ حياتها حبًّا وسعادة..

ومع هذا فلا يزال يحتفظ بصورة هناء في إطارها الذهبي بمكتبة بيته.

وحاولت زوجته بدافع شعور الغيرة والحب.. أن تمزّق يوماً هذه الصورة.. فثار وأزبد وقال: إنها ذكريات الماضي يا أم خلود.. فماذا يضيرك منها؟. إنها مجرد صورة فحسب..

قلت له يوماً وأنا أزوره في داره.. ما سر احتفاظك يا صديقي العزيز بهذه الصورة؟ أقصد صورة «هناء» ألا تزال تعيش في ذكريات الماضي البعيد؟. أما كان الأجدر أن تحل مكانها «خلود» ثمرة حبك وفلذة كبدك..؟ قال: إنه الوفاء يا صديقي وأثّر فيّ جوابه الهادىء المعبر.. وأدرك ما يجول بخاطري فأردف قائلاً:

لا تعجب يا عزيزي.. إن «هناء» قد ظهرت على مسرح الحياة من جديد.. حين كنت أقضي إجازتي مع الأسرة في بلدها في العام الماضي.. تصوّر أنها لم تتزوج بعد فقد كان عندها بقية من أمل.. فآثرت الانتظار.. وحين عرفت بزواجي.. جاءت إلينا تبارك زواجنا وحبنا وتضم أبنائي إلى صدرها في حنان بالغ..!

أليس هذا منتهى الوفاء..؟

قلت: إنه لعمر الله .. نعم الوفاء..





النهاية السعيدة



النهاية السعيدة

ولد « هشام » في أسرة فقيرة، ورغم قسوة الحياة وحاجة أبيه لمساعدته في مهنته الفنية إلا أنه أتيح له أن ينال نصيبه الوافي من التعليم.. كان يدرس بالنهار و يساعد أباه في عمله بعد الظهر حتى إذا آذنت الشمس للغروب تأبط كتبه الدراسية إلى المسجد الحرام حيث يلتقي بالرفقة من أصدقائه وزملائه في الدراسة ليذاكر معهم.. فقد كان المسجد الحرام آنذاك المكان الوحيد الذي تتوفر فيه الكهرباء والإضاءة القوية.. أما البيوت السكنية فكانت تستعمل في الإضاءة الغاز الصناعي وكان الحرم المكي أشبه بخليّة نحل يضم كل العناصر والفئات، وفي فضائه الرحب مجمع لحلقات الدروس. وقد توسط كل حلقة إمام أو فقيه أو عالم لغوي أو أديب دراسات في شتى ألوان العلوم والفنون والفقه والدين.. وعشاق هذه الحلقات من طلاب العلم كثيرون، وأمزجتهم مختلفة. الكل يختار ما يرغبه ويهواه، والحرية مطلقة لطالب العلم يختار ما يلائمه و يناسب مداركه وميوله، كالطائر الطليق يتنقل من غصن إلى غصن ومن شجرة لأخرى، وتضيق الحلقات وتتّسع بقدر ما يتمتع به إمام الحلقة من سعة في الأفق وغزارة في العلم وقدرة على الإقناع واستمالة للنفوس والأفئدة.

بينما نرى أروقة المسجد وقد انتشر فيها طلاب المدارس زرافات ووحداناً في صورة مجموعات لاتقلّ عن اثنين ولا تزيد عن ثلاثة. وأفضل مكان في هذه الأروقة الأركان والزوايا، للهدوء الذي يخيّم عليها بحكم بعدها عن ضوضاء المارّين والعابرين وخاصة في أوقات الظهيرة وقبل الأصيل.. أما في الليل فالتسابق على أشده بين الطلاب في اختيار المكان المناسب الذي يتوفر فيه الضوء في الأراضي الرحبة تحت السماء الصافية بجانب أعمدة الإضاءة وخاصة في موسم الصيف.. والمنظر الغريب الذي تراه تلك الأوجه المختلفة في طرق أداء المذاكرة، فطلاب لاتحلو لهم مذاكرة

الدروس إلا وهم سائرون يذرعون الأروقة جيئة، وذهاباً، وآخرون وقفوا تحت الأعمدة يستظهرون ما عليهم من دروس واثنان جلسا يسمع أحدهما إلى الآخر، وأفراد آثروا الوحدة والانطواء على أنفسهم يذاكرون دروسهم في صمت، وكان «هشام» من هذا الصنف الأخير لإيمانه العميق بأن هذه الطريقة أجدى وأسرع في المذاكرة والتحصيل، إنها ذكريات الماضي البعيدءأما اليوم فالأمر يختلف كلّية بعد أن تطورت أم القرى قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأصبحت مدينة حديثة تتوفر فيها كل أسباب الحياة الهانئة المتمثلة في عمرانها المتطور الذي امتد إلى الأودية والشعاب، وفي شوارعها الجميلة التي ازدانت بثريات الكهرباء والأزهار العبقة والأشجار الظليلة، حتى الحرم المكي قد تغيرت كثير من معالمه فاتسعت ساحته بعد المشروع الجليل الذي جنّدت له الدولة كل إمكانياتها ليكون أضخم وأجمل مسجد على وجه الأرض باعتباره قبلة العالم الإسلامي. وأصبح طالب اليوم يجد كل شيء ميسّر له في مدرسته التي يدرس بها، وفي داره التي يسكن فيها.. وفي مجتمعه الذي يعيش فيه.. إنها سنّة الحياة المتطورة، و يقظة ورعاية أولي الأمر في بلادنا..

ظل «هشام» يكافح و يناضل بعزيمة لا تعرف الكلل وإرادة لا تقهر، معتمداً على ساعده يشدّ من أزره والده وإخوانه الكبار الذين يعملون في أماكن بعيدة من أجل لقمة العيش. واستطاع أن يحرز تقدماً كبيراً ملموساً في دراسته متفوقاً على أقرانه في جميع المراحل الدراسية حتى أنهى المرحلة الثانوية. وكان من أوائل الطلاب المبرّزين. مما جعل اسمه في القائمة الأولى من المرشحين للابتعاث خارج المملكة.. وتردد في بداية الأمر، هل يكمل دراسته الجامعية؟.. أم يبقى بجانب والده المسن وإخوته الصغار؟ إنه متعطش للعلم والرغبة في الاستزادة منه، ولكن لمن يترك أسرته هل يرسل في طلب أخيه الأكبر الذي يعيش في قرية نائية بإحدى الدوائر الحكومية؟ أم كيف يتصرف؟! أدرك والده الحيرة القاتلة التي يعيش فيها ابنه، ورأى بأنه من الظلم أن يميت فيه الطموح والرغبة في مواصلة التعليم، فبارك البعثة الدراسية لابنه بعد أن طمأنه بأنه لايزال قادراً على العمل وأن إخوته الكبار لا يألون جهداً لمساعدته..

وكان هذا القرار «لهشام» مفاجأة سارّة له.. فأسرع يحزم حقائبه وأكمل

إجراءات سفره ليلحق بركب زملائه في البعثة الدراسية. إنها أول بعثة حكومية تضم أضخم عدد من المبتعثين للتخصص في شتى العلوم والفنون.. واستطاع هشام بما أوتي من ذكاء حاد وتعطش للعلم والمعرفة أن يحرز تقدماً ملموساً في دراسته الجامعية، واختار من زملاء بعثته صديق طفولته (سمير) ليشاركه مسكنه وحياته المعيشية للتقارب الكبير الذي يجمع بينهما في الطباع والعادات والتفكير.. كانا يدرسان بكلّية واحدة و يذاكران معاً لا يراهما الناس إلا متلازمين كالظل لا يفارق أحدهما الآخر، وكان هذا التآلف الذي جمع بين قلبيهما صمّام الأمان لهما، وحماية لهما من مفاسد المدينة حتى تشبّها بالنّاسكين و وضعا نصب أعينهما الجد والاجتهاد والتفرغ الكامل للدراسة حتى يعودا ظافر ين منتصر ين إلى وطنهما الحبيب لينتظما في سلك العاملين المخلصين لبلادهم وأمتهم، وتحقق لهما ما أرادا..

إلا أن طبيعة الحياة العملية فرّقت بينهما، ومع هذا ظل كل منهما وفيًّا للآخر. وحين يلتقيان يتجاذبان أطراف الحديث و يبث كل منهما الآخر أدق أسراره الخاصة.. واستطاع «هشام» أن يوفر لأسرته الحياة الهانئة بما أنعم الله عليه من مركز مرموق وسعة في الرزق. واستطاع أن يحقق لإخوانه الصغار الرعاية الكاملة ويمنحهم حبه وعطفه الكبير حتى كبروا، وأتاح لهم أن يواصلوا تعليمهم في الخارج فكان بحق الإبن البار بوالديه وأسرته، وحاولت أمه الحنون بعد أن رأت أحب أبنائها إلى نفسها يخطو إلى الخامسة والثلاثين من عمره أن يكمل نصف دينه.. ولكنه كإنسان متعلم مثقف كان يؤمن بأن الزواج رباط مقدس وضرورة من ضرور يات الحياة، ولكنه لم يكن مقتنعاً بالطرق العتيقة التي اعتاد عليها في تزو يج بناتهم.. ولهذا رفض كل عرض تقدمت به أمه أو والده أو أهله فالزواج في نظره مسؤولية كبرى. فإذا لم يكن قائماً على أساس قوي، تقوضت معالم الأسرة وانقلبت إلى جحيم لا يطاق.. والمبادىء التي تقوم عليها كيان بناء الأسرة الزوجة، ومن رأيه أن يعرف الكثير عمّن يختارها شر يكة لحياته، أخلاقها.. ثقافتها.. طباعها.. مستوى ما تتمتع به من جمال.. وأهم من هذا كله أن تكون من بنات وطنه، لإيمانه بأنها أقدر على التكيّف بالحياة والوضع الاجتماعي من أيّة امرأة أخرى.. وأجهد نفسه في البحث وعزّ عليه أن يرى أقرانه من

زملائه، وقد تهيأت لهم حياة زوجية هانئة. وأحس بفداحة العبء وخشي أن يفوته ركب القطار لو طالت فترة الانتظار،وسعى المحبّون من أصدقائه الأوفياء وفي مقدمتهم سمير إلى نجدته ومساعدته.. وأخيراً وجد هشام ضالته المنشودة. إنها فتاة من مواطنيه تعيش في بلد عربي على قدر طيب من العلم والثقافة وحسن التربية،وبدأ يتحسس أخبار هذه الفتاة من معارف هذه الأسرة التي أطنبت في مديحها، ولم يستطع صبراً، فتقدم يطلب إجازة إدارية، وطار على الفور إلى البلدة التي تعيش فيها هذه الفتاة مع أسرتها. وأتيح له رؤية الفتاة وأعجبه جمالها وما تتمتع به من ذكاء وسرعة في البديهة... إلا أنها صغيرة والفارق في السن كبير بينهما، ورغم أنه معروف بأناقته ودقّته والتريث في الأمور إلا أنه لم يحتمل الانتظار بعد أن شعر بميل وحب كبيرين نحوها. ورأى في فارق السن ميزة كبرى تجعله يخضعها لإرادته، ووجدت أسرة الفتاة أن في هذا الزواج كسباً كبيراً لها لما يتمتع به «هشام» من سمعة طيبة في عمله وخلقه والمستقبل الباسم الذي ينتظره، أما الفتاة فلم تكن راضية به فهو ليس فارس الأحلام الذي كانت تفكر فيه، فهو يكبرها بخمسة عشر عاماً وهي تريد شاباً في مثل سنها وصارحت أمها بما يرتسم في نفسها، وثارت الأم وأزبدت واعتبرته خروجاً عن التقاليد وأحلاماً زائفة لفتاة غضّة. وأجبرتها على الصمت وعدم الاعتراض وإلا أذاقتها مر الهوان. وكتمت الفتاة حسرتها وغيظها وتظاهرت بالقبول حتى لا ينالها سخط أمها وغضبها. وتركز بغضها «لهشام» ومقتها له.. وفي ركب حافل زفَّت «آمال» إلى «هشام». وحاولت الفتاة أن تقنع نفسها بالأمر الواقع لتعيش حياة سعيدة هانئة مع من اختارته أسرتها لها ولكن هشام حاول أن يستعرض عضلاته أمام الفتاة الصغيرة ليخضعها لإرادته،وسيّرها وفق المخطط الذي رسمه لحياته،ولم يكن يعلم بما كانت تنطوي عليه نفسية فتاته من بغض وكراهية له، وإلا كان اختط لنفسه سياسة أخرى تجاهها ليحببها إلى نفسه ويزيل منها شعور الكراهية والبغضاء، وشعرت «آمال» بخيبة أمل وتركزت عقدتها النفسية تجاه زوجها أكثر من أي وقت مضى وأكسبتها صلابة وعناداً. فبدأ التنافر بينهما على أشده منذ الأسبوع الأول لزواجهما وانقلبت حياتهما إلى أتراح.. وشقاق.. ونزاع، وحاول الأهل والأصدقاء إزالة سوء التفاهم بينهما. وكانت الأم تعمل كل ما في وسعها للضغط على «آمال» وتنصح «هشام»

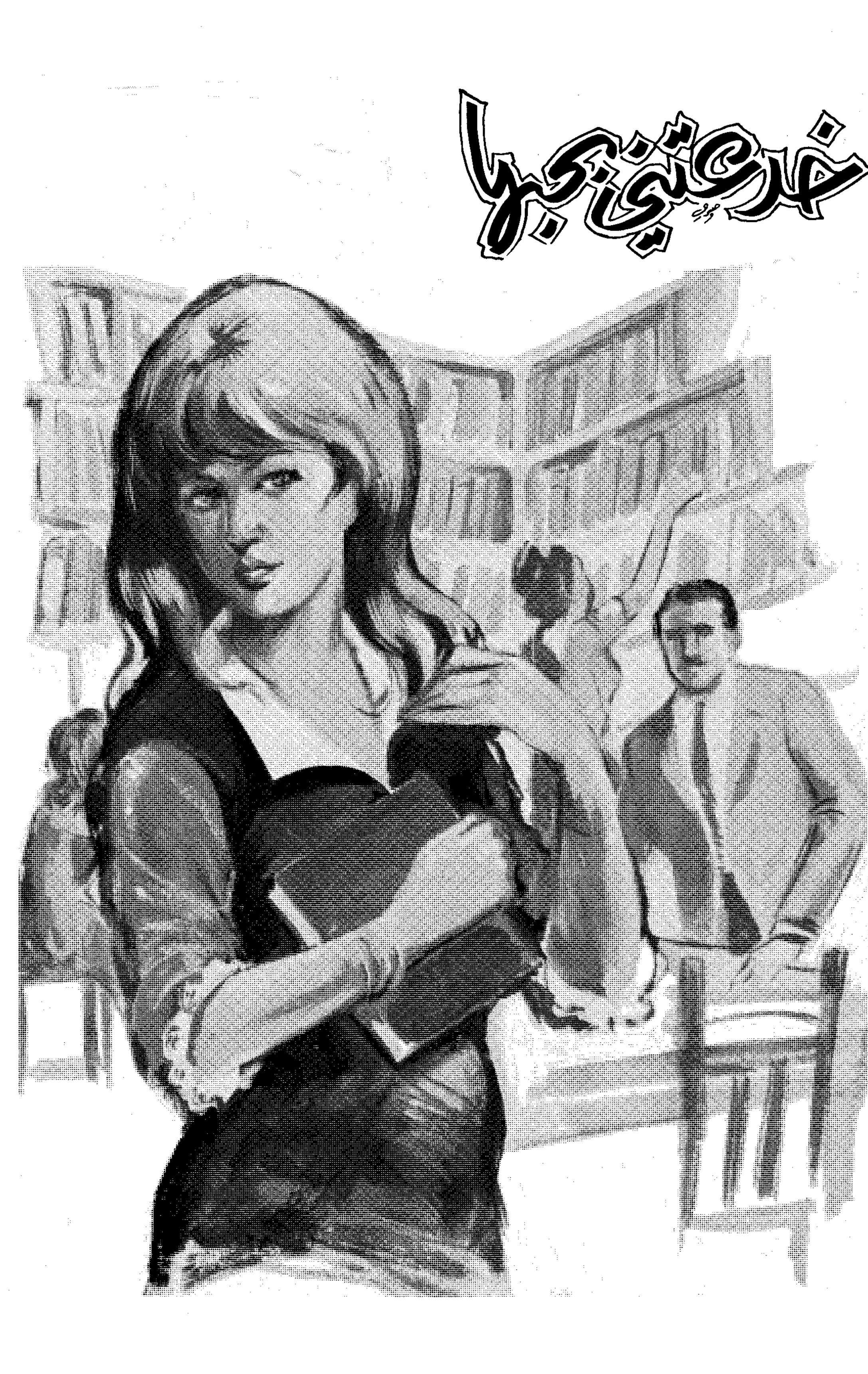
بالتريّث ومعاملة زوجته بالكياسة واللّين واستطاعت إلى حد كبير أن تفلح في إعادة الهدوء والطمأنينة بينهما، ولكنها كانت هدنة مؤقتة وعادا إلى الوطن الحبيب، وشعرت آمال بالفارق الكبير بين الحياة التي كانت تعيش بها بالخارج مع أسرتها وحياتها الجديدة في بلادها. وعملت ما في وسعها على التكيّف بحياتها الجديدة، ولكن العقدة الراسخة في اللاشعور تجاه زوجها لاتزال كامنة تطل عليها من حين لآخر فتحيل حياتها جحيماً، وأدرك هشام أن زوجته لاتكنّ له أي شعور بالحب، فلا يكاد يبدي رأياً إلا وتسفهه، ولا يشتري شيئاً إلا وأظهرت له شتى معايبه، وإن اختار لها هدية في مناسبة ما، لم تعجبها وألقت بها عرض الحائط ضمن المهملات. وحاول أن يستعين بأمها البعيدة عنها لزجرها وإعادتها إلى صوابها. فإذا بها تتهمه بالبخل وتطلب منه أن يغدق على ابنتها بالمال لترضى، أو بالمجوهرات الثمينة ليكسب حبها. ولم تعجبه هذه الطريقة الاستغلالية في كسب حب زوجته له، فاستحالت حياته إلى شقاء وعذاب لكثرة المشاحنات بينه وبين زوجته حتى أصبحت على كل لسان، وبدأ يعاملها بالمثل. وظل الاثنان على طرفي نقيض وانقلبت حياتهما شقاء دائماً، وأثّر ذلك في حياته العملية فلم يعد الموظف المنتج في عمله الهادىء الصبور الحكيم. وعاشا في جحيم هذه الحياة التعسة أربع سنوات متتابعة حتى بلغ بهما السيل الزبى. وسافرت آمال لزيارة أهلها خارج المملكة ورغم أن الإجازة التي سمح بها زوجها لا تتجاوز شهراً إلا أنها مدّتها لثلاثة أشهر، ولم يحاول أن يطلب منها العودة فقد أحس أنها عبء ثقيل ضخم، وهي بدورها أحسّت بالراحة في كنف أسرتها، وحاولت الأم أن تعيد الحياة إلى مجاريها بين الزوجين المتنافرين ولكن دون جدوى فكلاهما مصمم على التخلص من هذه الحياة اليائسة، وأراد «سمير» الصديق الوفي وزوجته أن يقوما بدور حمامة السلام بين الزوجين المتباغضين، ولكن طفح الكيل وكان الانفصال بينهما الراحة النفسية الكبرى لهما.

وفي جو ودي بين أسرة «آمال» و«هشام» تم الطلاق، وتنفس الزوجان الصعداء وبدأ «هشام» يكرس حياته لعمله ويوليه كل جهده وعنايته ليعوض ما فاته.. ولكنه لم يلبث أن وجد فتاة أحلامه في جارته الحسناء التي تربطها بأهله

أواصر صلات ودّية عميقة،وقامت أمه الحنون بدور الوساطة في هذا الزواج، وتحقق «لهشام» ما كان يتمناه في حياته.. إذ توفرت في الزوجة الجديدة كل الصفات والخصال الحميدة التي كان يصبو إليها، وأحس أنها الفتاة التي كان يجدّ في البحث عنها.. وخيّم على البيت الصفاء والحب الكبير المتبادل والحنان والتآلف والتعاطف. ورزق منها بطفلة أسماها «صفاء».

وكانت النهاية السعيدة.. بعد حياة الشقاء الدائم..







خدعتني بحبها

« ماريا » فتاة لعوب جمعت إلى فتنة الجمال وروعة المظهر حدّة الذكاء وسعة الاطلاع وحب المغامرة.. كانت تتخيّر ضحايا حبها من بين طلاب الجامعات رواد المكتبات. حيث يقصد الطلبة لتحضير بحوثهم العلمية فيها من ذخائر كتبها وموسوعاتها الثمينة النادرة. وقد رأت «ماريا» اللعوب أن تكون مقامرتها هذه المرة مكتبة الجامعة التي ينتسب إليها الطالب الجامعي «إحسان» بعد أن عرفت أنه يملك سيارة فاخرة تدل على أنه من أبناء الأثرياء فاتخذت مكانها بجانبه في هدوء وراحت تنقّب وتبحث في الكتب التي أمامها على المنضدة وكأنها تعد بحثاً علمياً، بينما أرسلت شعرها الذهبي على كتفيها في غير ترتيب أو نظام، إمعاناً في الإغراء والفتنة. ولم يشعر بها «إحسان» فقد كان منهمكاً في قراءة بعض مراجع بحثه وخطر له أن يسجل بعض النقاط الهامة، التي مرّ عليها قبل أن تضيع من ذاكرته وتحسّس جيبه ليلتقط قلمه فلم يجده، وكانت منه التفاتة لمن يجاوره ليستعير منه قلماً. وقع نظره على «ماريا» فشعر بارتباك. فقد كانت غاية في الفتنة والجمال.. كيف يجرؤ على مخاطبتها وهو الشاب الحيي الخجول المتديّن المستقيم في خلقه وسلوكه وفضل الصمت ومواصلة القراءة حتى لا تظن الفتاة أنه من هواة المعاكسة كما يفعل بعض الشباب، خاصة وجو المكتبة يسوده صمت مطبق، وأيّة حركة منه قد تسبب إزعاجاً لهواة القراءة والاطلاع لا.. لا.. لا داعي لمحادثتها وأخذ يتابع القراءة وأدركت «ماريا» حرجه فدفعت إليه بقلمها الفضّي فالتقطه «إحسان» وأومأ إليها برأسه تعبيراً عن شكره وتقديره.. وبدأ يسجل في مفكرته ما كان يختزن في ذاكرته من أفكار، وتجمد القلم في يده، وأحسّ ببرودة تسري في مفاصله وشعور غريب ينساب إلى أغوار نفسه.. إنها المرة الأولى التي يشعر فيها بمثل هذا الإحساس الغريب رغم إقامته في هذا البلد أكثر من ثلاث سنوات.. ليت

شعري أهو إحساس بالحب أم مجرد إعجاب عابر؟. لقد صادفني الكثير من بنات حواء في غدوّي ورواحي،وفي الكلية التي أدرس بها وفي كل مكان ذهبت إليه غير أني لم أعبأ بهن لقد كن مجرد صور كتلك التي أراها على شاشة السينما أو التلفزيون ولكني أحس بجاذبية مغناطيسية تشدّني إلى هذه الفتاة التي أراها لأول مرة وشرد به الخيال إلى الانسانة التي سوف تشاركه حياته ومستقبل أيامه.. وأيّة صفات يجب أن تتوفر فيها الجمال.. التعليم.. الثقافة.. الإخلاص.. الوفاء.. الأخلاق.. الرعاية المنزلية.. وتذكر ذلك اليوم الذي عرضت فيه والدته أن تزوجه بعد تخرجه من المرحلة الثانوية، من إنسانة يجهل كل شيء عنها، مجرد أوصاف من أمه أو أخته،فالتقاليد تأبى أن تسمح له برؤية فتاة أحلامه رغم ما تكلفه مثل هذه المغامرة من إرهاق مادي في المهر وفي تكاليف حفلات الزواج.. وقد تروق له الفتاة فيعيش معها سعيداً راضياً بحياته وقد لا تعجبه فيعيش معها في تعاسة طيلة عمره.. ووجد في مواصلة تعليمه الجامعي مخرجاً للاعتذار لوالدته وتأجيل موضوع الزواج لحين عودته حتى لا يعوقه عن دراسته.. وأحسّ بأنه قد شط به الخيال فعاد يفكر في هذه الخلجات النفسية الدخيلة التي سيطرت عليه.. ترى هل أوقعتني هذه الفتاة في شراك حبها لمجرد النظرة الأولى إليها وقلمها الفضي الرقيق الذي أعادته لي؟ ومن هذه الفتاة حتى أشحذ كل فكري وخيالي فيها وأنا لا أعرف شيئاً عنها؟. ورفع رأسه ليتابع قراءته في البحث العلمي الممتع الذي أمامه لكن سرعان ما وقع نظره على الفتاة التي سحرت فؤاده فألفاها بالباب تستعد للخروج حاملة حقيبتها وكتبها. وتذكر أن قلمها معه فأسرع يجمع كتبه وانطلق يعدو خلفها ليعيد إليها القلم ولحق بها عند منعطف الشارع ولكنه لا يعرف اسمها فاقترب منها حتى أصبح بمحاذاتها..

إحسان : أظنك نسيت القلم الذي أعرتيني إياه؟!

ماريا : «أوه» شكراً يا عزيزي للطفك.

إحسان : بل شكراً لكرمك يا آنسة.

ماريا : «ماريا».. اسمي الذي أدعى به دائماً.

إحسان : آسف شكراً يا آنسة «ماريا».. وإن شئت دعوتني «إحسان».

مـاريـا : (في استـغـراب) «إحسان» اسم غريب حقاً أكاد أسمعه لأول مرة في هذا البلد.

إحـسـان : بالطبع مثل هذه الأسماء نادرة هنا.

مـاريـا : إذاً فأنت غريب عن هذا البلد.. أليس كذلك؟

إحـسـان : بلى أنا عربي.

مـاريـا : « تشرفنا » يبدو أن بيننا تقارباً كبيراً.

إحـسـان : (في دهشة) عجباً وأي تقارب تعنين ألست من هذا البلد؟

مـاريـا : نعم، أنا طالبة وغريبة مثلك ولكن ما أعنيه بالتقارب شيء آخر.

إحـسـان : (في دهشة) إذاً فأنت إسبانية إن صح حدسي.

مـاريـا : تماماً كما ذكرت.

إحـسـان : و يبدو أن فيك دماً عربياً كما يبدو ذلك في ملامحك!

مـاريـا : مـدهـش .. مـا أشد ذكاءك يا «إحسان» !! ولكن لاغرابة في هذا فأنتم الـعـرب تـتمتعون بذكاء حاد وأمجادكم الخالدة في بلادي دليل عظمتكم وذكـائـكـم الخـارق ولـكـن قل لـي كـيـف عـرفت أني أنحدر من سلالة عربية؟

إحـسـان : مجـرد تخـمين لمـا عـنـيـتـه بـالتقارب ثم هذا الإطراء لأمجادنا العربية الذي أسمعه منك لأول مرة.

مـاريـا : أنا سعيدة لأن في سلالتنا دماً عربياً وإن كنت لا أفهم شيئاً من لغتكم.

إحـسـان : ولكن لغتكم لا تخلو من بعض الألفاظ العربية كما سمعت.

مـاريـا : هذا صحيح والفضل يرجع لفتوحاتكم العربية الإسلامية.

إحـسـان : أنـا سـعيد بهذا اللقاء ورب صدفة خير من ألف ميعاد.. فهل تسمحين لي بالانصراف.

مـاريـا : « أوه » .. لقد تذكرت.

إحـسـان : ماذا ؟

مـاريـا : الساعة الآن تشير إلى السابعة مساء.

إحـسـان : أخالك تعنين حلول ميعاد العشاء.

مـاريـا : « تضحك » بالضبط وأرجو أن نلتقي ثانية .. إلى اللقاء.
إحـسـان : إلى اللقاء.

ويمضي « إحسان » إلى بيته وقد ازداد حبًّا وإعجاباً بهذه الفتاة التي ملكت عليه لبّه، وسيطرت على كل حواسه بحديثها العذب الشهي، و يعجب كيف أوتي كل هذه الشجاعة والجرأة لمجاراتها في الحديث وهو الذي لم يتعود مثل هذه المواقف الحرجة. ولكنها المناسبة السعيدة الحلوة، و يسرح في دنيا الأحلام من جديد ولكن خيال « ماريا » لا يفارقه فقد استحوذت على أفكاره ومشاعره. إنها الفتاة التي يخفق لها قلبه للمرة الأولى فهل تبادله نفس الشعور والحب؟.. هل هي الفتاة التي تصلح شريكة لحياته؟ هل يمكن أن تكون ربّة بيت ممتازة كبنات وطنه تضع منزلها في المقام الأول؟.. هل يمكن أن تقوم بحسن تربية أبنائه وحسن تنشئتهم؟! إنها كأجنبية قد ورثت تقاليد وعادات قد لا يستسيغها كعربي مسلم فهل تتخلّى عنها؟ أيمكن أن تخلص في حبّه وتحافظ على كرامته وشرفه؟ هل يكون لزواجهما أثر في سير دراستها ولم يبق على نيل البكالوريوس غير شهور قلائل؟ هل يستشير أسرته وأصدقاءه قبل أن يبتّ في زواجه منها؟ هل يصارحها بكل شيء حتى لا يصدمها ويخدعها؟.. ثم أخيراً هل تقبل الزواج منه فيما لو عرض عليها ذلك؟! أسئلة لا حصر لها تزاحمت وتواردت على خاطره وهو حائر لا يدري ما يفعل..

إنه يخشى أن يثقل عليها بأسئلته فتضيق بها وتنسل هاربة من حياته وتتركه صريع حبها وهواها، و يطيل التفكير و يتعمق فيه وتتجاذبه نوازع الشر والخير بين شهوته الجامحة التي تزيّن له تضليل فتاته وخداعها حتى لا تفلت من يده.. ونوازع الخير الكامنة في نفسه كشاب مسلم قوي الإيمان سليم الطويّة تأبى عليه أن يضلّل فتاة مسكينة قد تثق به ثم تطعن بخدعته فتدوس على كرامته وشرفه فيفقد كل شيء.. وحاول أن يسدل ستاراً كثيفاً على هذه المشكلة التي جدت عليه وتمنى لو لم تسُقْه الأقدار إلى مكتبة الجامعة هذا اليوم، وأرهقه التفكير فحاول أن ينام ولكن خيال « ماريا » ماثل أمامه يريده أن يستقر على رأي، و يطلق لأحلامه العنان ليجد الكرى

الطريق إلى عينيه المجهدتين المتعبتين، ولكن قلب المحب العاشق الولهان لاينام. ويشتد الصراع بين عقله وقلبه.. فالتفاوت كبير بينهما في العادات والتقاليد، وفي طريقة الحياة وهو يريد أن يتوج هذا الحب برباط مقدس حتى تتحقق له السعادة الزوجية ولكن عقله الواعي يشدّه إلى التأنّي والحكمة والتفكير في العاقبة. وقلبه الوله يقربه إليها وهو حائر كالتّائه في البيداء، لم يعد يرى متعة في القراءة والدرس، أو لذة في الطعام والشراب يمضي نهاره كليله يعيش في جحيم الحب ويرى في الوحدة والبعد عن الناس راحة نفسية، وانقطع عن دراسته أياماً ليخلو إلى نفسه بعيداً عن الأضواء والتجمع علّه ينساها. وجزع «خالد» أعز أصدقائه وأمين سرّه لغياب صديقه العزيز. تُرى ماذا حدث لأخي «إحسان»؟! فعهدي به ألاّ يتأخر عن درسه! لابد أنه مريض،لشد ما أنا مقصر في حقّه ويتوجه على الفور لزيارة صديقه ويطرق باب غرفته بعد أن عرف من ربّة الدار التي يسكن فيها أنه ملازم بها، ولم يبرحها. ولما لم يجده يرد عليه فتح الباب في رفق ووجد صديقه على مكتبه ساهماً شارد الفكر، ويداه على خديه وعلى قسمات وجهه إعياء ظاهر كمن حلّت به كارثة. يا إلهي ماذا أصاب صديقي!؟واقترب منه.

خالد : إحسان. إحسان. ماذا بك يا صديقي؟! أراك شاحب الوجه تائه الفكر!. أهناك أخبار سيئة تلقيتها من الأهل لاقدّر الله؟!

إحسان : هاه. «خالد»! مرحباً بك يا صديقي العزيز.

خالد : أخبرني ماذا حدث؟! فإني أراك تعاني آلاماً قاسية وقد أزعجتني بانقطاعك عن الدراسة!!

إحسان : لقد جئت يا صديقي في وقتك المناسب فما أشد حاجتي إليك الآن!

خالد : أنا دوماً يا عزيزي في خدمتك وما جئت إلا لهذا الغرض.

إحسان : ما عهدتك إلا شهماً نبيلاً ووفيًّا لأصدقائك.

خالد : شكراً لتقديرك. خبرني بالله ماذا حدث؟

إحسان : اطمئن يا عزيزي فالأهل جميعاً بخير، ولكني أعاني أزمة نفسية حادة.

خـالـد : إذا كـانـت الأزمـة مـنـشؤها حاجتك إلى المال فالأمر سهل فكل ما أملكه أضعه بين يديك وتحت تصرفك.

إحسـان : أشكرك ، لو كان هذا سر أزمتي لما صرت بهذه الحال التي أنا فيها.

خـالـد : هل لك أن تفصح لي عن مشكلتك الحقيقية حتى أساعدك.؟

إحسـان : لقد وقعت في الحب يا عزيزي!!!

خـالـد : (يضحك) حب!هل أنت جاد فيما تقول؟ أكاد لا أصدق!!

إحسـان : بـالله لا تهـزأ يـا صديقي ، فإني قد وقعت في شراك الحب فعلاً وهذا سبب أزمتي.

خـالـد : ومـن يـا تـرى هـذه الـسعيدة التي نصبت شباكها حولك وكانت بارعة في صيدك؟

إحسـان : عدنا إلى المزاح والسخرية من جديد، أعتقد أنه من الأفضل ألاّ أصارحك بالحقيقة.

خـالـد : آسف يا عزيزي وها أنذا أصغي إليك بكل جوارحي.

و يروي إحسان لصديقه الوفي قصته مع فتاته الشقراء،ولكنه لا يصرح له باسمها وكيف استطاعت أن تتسلّل إلى قلبه وتستحوذ على مشاعره حتى أصبحت كل شيء بالنسبة له،وهو لا يستطيع أن يضحي بهذا الحب بعد أن تمكن في قلبه ورسخ فيه ، وأنه قرر أن يفاتحها بالزواج حتى يريح نفسه من الآلام التي يكابدها ليبدأ حياة جديدة في دنيا عامرة بالحب.. و يدهش خالد لما سمعه فهو لم يتصور أن إحساناً من النوع الذي ينقاد ببساطة لمثل هذا التفكير الساذج فعهده به قوي الشكيمة ، يزن الأمور في دقّة بحكمة وتعقّل وله من قوة إيمانه ومتانة خلقه ما يجعله بمنأى عن التورط في مثل هذه الأمور. فالزواج بالأجنبيات قد ثبت فشله وكم من فتى عربي قد خدع ببريق الحب وربط حياته بالزواج ولكنه ما أن يعود إلى مسقط رأسه حتى يرتطم هذا الحب بسياج التقاليد وما جُبِلَ عليه العربي المسلم من حفاظ على طبائعه وعاداته وتمسُّك بدينه وخلقه و يبدأ الشّقاق بينهما،فهي بحكم تربيتها وتقاليدها لا يمكنها أن تتكيّف بالمجتمع العربي الإسلامي من أول وهلة،فلابد من مجاراتها ومسايرتها حتى تتعود على أساليب

الحياة تدريجياً وهو لايستطيع الصبر والانتظار، وإلا أصبح مضغة في أفواه الناس وسلطت عليه أضواء الانتقاد من كل جانب وألسنة الناس حادة لا ترحم،وتبدأ هذه الخلافات تتّسع وتزول غشاوة الحب و يتم الانفصال وهذا ما يخشى أن يقع فيه أوفى أصدقائه وأحبهم إلى نفسه. وأطرق مفكراً يستعرض الشقراوات الجميلات علّه يستدل على هذه الإنسانة التي حطمت نفسية صديقه وجعلته يعيش في عذاب الحب وسئم خالد من صمت صديقه فبادره قائلاً:

إحسان : عسى أن تكون قد توصلت لحل إيجابي لإنهاء عذابي.

خالد : إن مشكلتك تحيرني يا صديقي فهل لي أن أعرف اسمها؟

إحسان : ليس الآن يا عز يزي قبل أن أعرفك عليها وستعرف أني على حق لما تمتاز به من خلق كريم وجمال فاتن وحب للعرب.

خالد : ماذا تقول.. حب للعرب فتاة شقراء (آه) لقد عرفتها!! إنها ماريا اللعوب.

إحسان : هاه .. ماريا !! إنه اسم من أحببت فعلاً ولكنها محال أن تكون لعوباً لابد أنك تعني إنسانة أخرى طائشة.

خالد : أنا واثق من أنها هي،فطالما خدعت أناساً قبلك بحديثها المعسول عن العرب وأمجادهم. إن قصتها مع (سنان) أحد أبناء البلاد العربية على كل لسان. خدعته بحبها لتستغله مادياً فلما أفلس نبذته لتبحث عن ضحية أخرى.

إحسان : أكاد لا أصدق ما تقول.

خالد : إن شئت أريتك إياها الليلة على طبيعتها في إحدى الملاهي فقد علمت من «سنان» أنها وجدت ضحية جديدة.

إحسان : ولكني لا أحب ارتياد الملاهي وأنت تعرف هذا.

خالد : وأنا مثلك يا عزيزي أكره شيء إلى نفسي أن أغشى هذه الأماكن، ولكني أريدك أن تقطع الشك باليقين.

إحسان : اتفقنا.

وفي المساء يذهب كل من خالد وإحسان إلى الملهى الذي أرشدهما إليه سنان.. وهناك يرى إحسان ماريا ذات الشعر الأصفر الذهبي على حقيقتها مع ضحيتها المخدوع في موقف مثير يأباه خلقه الكريم ودينه القويم، وتجافيه تقاليده، فتزول عن عينيه غشاوة الحب الخادع و يشعر بأنه ولد من جديد، وترتفع روحه المعنوية وتعود إليه بشاشته وحيويته، و يشد على يد صديقه المنقذ وفي عينيه ابتسامة الرضى والتقدير والعرفان بالجميل، فلولاه لأصبح واحداً من هؤلاء الضحايا.. وقبل أن يغادر الملهى يلقي نظرة أخيرة على الإنسانة التي عذبته وغشته وخدعته، ولم تعد تستحق حبه واحترامه وتقديره ليقول لها وداعاً يا حبي الخادع.. و يصمم على السير قدماً فيما رسمه وخططه لحياته ومستقبله وهو أشد إيماناً من أي وقت مضى و يدرك أن الحب الحقيقي كنز ثمين لا يودعه الله إلا في القلوب المؤمنة الكبيرة الحساسة وإن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.




قسوة وعذاب



قسوة وعذاب

ولد حسين في بيت علم .. فأبوه كان قاضياً شرعيًّا ربّاه فأحسن تربيته،وكان بحكم تربيته المثلى المنزلية مثالاً حيًّا ونموذجاً طيباً للشباب.. يلقى كل تقدير واحترام من أساتذته بالمدرسة.. وأمله الكبير بعد نجاحه في الكفاءة أن يواصل تعليمه الثانوي فالجامعي ليشارك في خدمة أمته وبلاده مع من سبقه في العمر من الشباب والشيوخ.. بيد أن القدر لم يمهله لينعم بحياته الهانئة السعيدة في كنف والده الحبيب إذا اختطفت المنيّة والده وهو في أول المرحلة الثانوية،ولم يترك والده له ولأمه وإخوته الصغار سوى ذلك البيت الذي يسكنه مع أسرته وراتب التقاعد. إلا أن الأعباء الضخمة لأسرته الكبيرة حالت بينه وبين إكمال تعليمه فهجر الدراسة وهو يشعر بغصة وألم ليؤدي واجبه نحو أسرته،وحاولت والدته الحنون أن تثنيه عن عزمه ليواصل تعليمه وأسرته على استعداد لكي تعيش على راتب أبيه الضئيل ولكنه رفض في إباء وشمم آملاً في أن يهيّء لهذه الأسرة المكافحة حياة كريمة، فانخرط في سلك وظيفة إدارية بإحدى الوزارات على أمل أن يواصل كفاحه في التعليم في مدرسة ليلية ثانوية،ولكن عبء العمل الوظيفي عاقه عن متابعة دراسته واستمر يواصل الكفاح أملاً في ازدياد راتبه.. وبفضل تشجيع رؤسائه وتقديرهم لعمله أخذ يشق طريقه في الحياة العملية وتهيأت له فرصة سانحة ليقضي عاماً كاملاً في منحة دراسية تتعلق بمهام عمله في إحدى البلاد العربية، ووجدها فرصة سانحة وصحب أسرته معه واستطاع في خلال هذه المدة أن يحصل على شهادتين في مجال اختصاص عمله منحته فرصة الترقية إلى المرتبة السادسة التي يتوق إليها، وأحسّت الوالدة الحنون أن كفاح ابنها لابد أن يتوّج بفرحة العمر التي تسعى إليها كل أم وهي الزواج، وعرضت عليه أن تزوجه (سامية) ابنة الجيران فهي فتاة مثالية نادرة وعظيمة في أخلاقها كريمة في طباعها. غير أن «حسين» أبى أن

يربط نفسه بالزواج وهو لا يزال في سن العشرين.. فقد كان يعتقد أن من واجبه رعاية أسرته حتى يهيّء لإخوته تعليماً يكفل لهم حياة رغيدة طيبة.. ثم إنه من أشد الناس إيماناً واقتناعاً بفكرة الزواج من بيئته وعشيرته وتجد الأم الفرصة سانحة لمناقشته.. قائلة:

الأم : الزواج في بلادنا يحتاج إلى تبعات كثيرة وراتبك وكل ما تملك لا يكفي.

حسين : ولكني أحب وطني وعشيرتي، وفتاة بلادي أقدر على تحمّل أعباء الحياة حلوها ومرها من أية امرأة في العالم.

الأم : ولكن (سامية) فتاة مؤدّبة وفيها كل صفات المرأة المثالية وأنا واثقة من هذا.

حسين : أنا لا أشك في هذا ولكن اختلاف البيئة له أثره، فهي إن تحملت الحياة معنا عاماً فقد لا تتحملها العمر كله.

الأم : هذا تشاؤم يا بني «فسلوى» زوجة ابن عمك من هذا البلد، وما رأيتها يوماً تشكو من حياتها، فهي سعيدة هنيئة في حياتها مع زوجها.

حسين : سلوى سيدة مثالية نادرة ثم إن ظروف ابن عمي تختلف عن ظروفي فهو موسر وعلى استعداد أن يهيّء لها كل عام رحلة إلى بلدها لتزور أهلها.. أما أنا فكما ترين ظروفي المادية لا تحقق لها ذلك.

الأم : الزوجة العاقلة يا بني من تقدر ظرف زوجها (وسامية) فتاة عاقلة ذكيّة.

حسين : أرجوك يا أمي أن تسدلي ستاراً كثيفاً على هذا الموضوع فإني ما زلت في مقتبل العمر وأمامي فرص كبيرة لتهيئة حياة أحسن.

الأم : ولكن هذه الفرص قد لا تتحقق لك في بلادنا.. فأنت تريد أن ترى بعينيك من سوف تشاركك حياتك وتقاليدنا لا تسمح بهذا.

حسين : أنت على حق يا أماه ولكن ظروف الحياة لا تبقى على وتيرة واحدة وسوف يأتي الوقت الذي يدرك فيه الأب أن من واجبه كأب يحرص على سعادة ابنته أن يهيّء لمن يريد أن يتقدم لخطبتها أن يراها بعينيه.

الأم : ولو تحقق لك هذا فإن تكاليف الحياة الزوجية مرهقة فالغلاء الفاحش في

المهور، والصرف الباهظ على حفلات الزواج، كل هذا لا تقوى عليه حالتك المادية.

حسين : نحن الذين ابتدعنا كل هذا، وآباؤنا وشبابنا مسؤولون عن كل هذا، فلو رفض كل أب وشاب أن يقيم مثل هذه الحفلات لما تحمّل الا ثنان الديون الفادحة ولما كان هناك داعٍ للغلو في المهر.

الأم : هذا تفاؤل حسن منك يا بني،ولكن هذه التقاليد من الصعب محوها من أذهان الناس.

حسين : ولكنها تقاليد بالية فقليل من الحكمة مع العزم والتصميم كفيل بإزالة كل هذا.

الأم : لقد أفحمني منطقك يا بني،وأرجو أن تتحقق لك كل هذه الآمال إنك حر فيما تقرره نحو شريكة حياتك فهذا شيء يخصك وحدك.

حسين : أنت أم مثالية ومثلك في هذه الحياة نادر.

الأم : الفضل يرجع لأبيك رحمة الله عليه فهو الذي علمني كل هذا.

وعاد حسين إلى الوطن الحبيب لينتظم في سلك العاملين في الإدارة التي يعمل بها ووجد تقديراً من رؤسائه، وحصل على ما كان يؤمله من ترقية، وكان يسبغ على أسرته كل رعايته.. فأتاح لأخيه الذي يصغره بعامين أن يواصل تعليمه الجامعي في أوروبا ويشجع أخته «هدى» وأخاه الأصغر «هشام» على الاستمرار في دراستها، ورغم حاجته إلى إنسانة تشاركه حياته إلا أنه آثر الانتظار حتى يتخرج أخوه «محسن» من الجامعة ويشق إخوته طريقهم في درب الحياة الطويل بسواعدهم دون حاجة إليه، وألحّت عليه أمه الحنون بعد أن رأت بوادر الشيب تغزو بعض شعرات رأسه وهو لم يزل في عنفوان الشباب ولم تنتظر جوابه، فبدأت تسعى للبحث عن فتاة تليق به ولكن مساعيها باءت بالفشل أمام الصخرة العاتية من التقاليد فهذه الأسرة تريد شاباً ثريًّا يغدق عليهم العطايا والهبات،وأخرى تريد مهراً خيالياً لتواجه به تكاليف الحياة الزوجية.

وهي حائرة لا تدري ما تفعل،إنها تشعر بالآلام المرضية تزداد عليها يوماً بعد آخر، وهي تريد أن ترى ابنها البار سعيداً بحياته ولكن المجتمع قاسٍ لا يرحم.. والزمن لم يتغير.. آه.. ما أشد عنادك يابني لو استمعت إلى نصحي في الزواج من «سامية» لأرحتني من كل هذا العذاب!!. ولكن ماذا يفيد الكلام في هذا وقد فات الأوان؟! وتحسّ بأنها قد صدمت في تحقيق أعز أمنية لها وتشتد عليها الأزمة القلبية التي تعاودها، ويسرع «حسين» إلى الطبيب والألم يحزّ في نفسه، ولكنه ما أن يصل إلى الدار حتى يجدها على وشك النزع الأخير.. ويصارحه الطبيب بأنه لاجدوى من العلاج فصدمتها النفسية كانت أقوى من أن يتحملهاقلبها الواهي ويقترب منها وفي عينه دمعة ساخنة على أعز ما يملكه في هذه الحياة التي ضحّت بزهرة شبابها من أجله وإخوته، لتقوم على خدمتهم وحسن تربيتهم ويمسك بيدها المرتعشة ليقبلها ويبللها بدموعه الغزيرة، وتنظر إليه الأم في حنان وعطف وبصوت خافت تخالطه حشرجة الموت تدعو له بتحقيق أمله في العثور على الإنسانة التي تحقق له الحياة السعيدة، وقبل أن تلقى ربها توصيه بإخوته خيراً وتنظر في حنان إلى أحب أبنائها إليها لتكتحل عيناها برؤيته.

وكم كانت الصدمة قاسية على «حسين».. فقد كانت أمه الدرع الواقي التي صانت كيان هذا البيت بعد وفاة أبيه،مما جعله يخلص في عمله ويوليه عنايته. وزاد من آلامه هذا الحزن القاتم الذي يخيّم على البيت كله،وأحس في قرارة نفسه أنه سبب هذه الإزمة كلها.. فلولا مسألة زواجه لما فارقت أمه الحياة، ويحادث نفسه في ألم وحيرة: ولكني لست المسؤول وحدي على آلامها إنه المجتمع القاسي الظالم الذي قضى عليها بتقاليده العتيقة البالية. وينتابه الحزن فيبكي في حرقة وألم وإخوته من حوله يشاركونه عذابه وآلامه.

ولكنه ما أن يفيق من هول الصدمة حتى يدرك أنه قد تجاوز حدود الله.. فالموت حق على جميع العباد «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت» سبحانك إنها إرادتك فاغفر لي وسامحني واعف عني إنك غفور رحيم.

ويصمم على الإخلاص لأسرته بعد أن حملته أمه الحنون أمانتها،ويأبى أن يزعج

أخاه «محسن» بخبر موت أمه حتى لا يؤثر ذلك على سير دراسته و يضاعف في حبه وحنانه لأخته « هدى » وأخيه الأصغر « هشام »،و يغدق عليهما كل حنانه وعطفه ليعوضهما ما فقدوه من حنان الأم ورعاية الأب.. ولكن هل استطاع «حسين» أن يتحمل هذه المسؤولية الكبرى تجاه أسرته أمام أعباء الحياة ومشاكلها؟ لقد حاول الصمود كثيراً. ولكن الحمل ثقيل والمسؤولية جسيمة فـ« هدى » وأخوها « هشام» في المدرسة يواصلان دراستها في جد واجتهاد فهل يحرم أخته من نعمة التعليم ليسخرها لخدمته، —وأخيه الصغير— بعد أن كبرت ونمت؟ ولكنها لاتزال صغيرة وليس بإمكانها أن تقوم بأعباء الأسرة وهي في سن الثانية عشرة من عمرها!!! إن حرمانها من التعليم ظلم لها فلابد أن تواصل تعليمها،فشباب اليوم لا يريد إلا الفتاة المتعلمة المثقفة، التي تستطيع أن تفهمه وتشاركه حياته العامة والخاصة عن إدراك ومعرفة، وتحسن تربية أطفالها وتهذيبهم وتثقيفهم، فهو إن حرمها من التعليم فقد يقضي على سعادتها الزوجية. وأطرق يفكر ملياً يبحث عن حل وسط يخفّف عنه قسوة الحياة التي يعيشها و بدأ يفكر جدّياً في الزواج بعد أن شعر بوطأة الحياة وقسوتها.. ولكن هل أجد الزوجة المثالية التي تشاركني الحياة وتتحمل معي آلامها وقسوتها؟! إنني لا أستطيع أن أعيش بعيداً عن شقيقتي وأخي الأصغر، إنهما أمانة في عنقي.. فهل ترضى من أختارها شريكة لحياتي بالعيش معنا في منزل واحد؟ وإذا حدث خلاف بين أسرتي وزوجتي فماذا يكون موقفي؟ هل أضحّي بزوجتي أو أسرتي؟ وكلاهما صعب ومر!!!

وتراكمت عليه هموم الحياة من كل جانب. إنه يريد أن يبتّ في الأمر، يقدم رجلاً و يؤخر أخرى. يريد أن يصل إلى نتيجة مرضية تريحه من عذابه وآلامه.

و يدخل عليه صديقه (سلمان) وزميله في العمل ولكن (حسين) لايحس بوجوده فقد كان غارقاً في تأملاته سابحاً في أفكاره وخيالاته والواسعة فيفاجئه بقوله:

سلمان : لِمَ كل هذا الإغراق في التفكير والسرحان؟. إن الدنيا بخير يا عزيزي فماذا حدث؟ لقد تغيرت أحوالك كثيراً!!

حسين : إن من في مثل حالي يا صديقي لا يستغرب منه هذا.

سلمان : أنت تعرف أنّي أعز أصدقائك ولا خير في صديق إذا لم يصارح صديقه بمشاكله و يشاركه في آلامه.

حسين : إنني أعاني هذه الآلام منذ موت أمي رحمها الله، وقد مضى على ذلك أكثر من ثلاث سنوات كما تعلم.

سلمان : أعرف هذا يا صديقي وأعتقد أن حل المشكلة في يدك.

حسين : لو كان في يدي لانتهى الأمر. وهذا ما يشغلني و يقلقني.

سلمان : الزواج يا صديقي في رأيي فيه نهاية لعذابك وقلقك.

حسين : هذا ما فكرت فيه فعلاً ولكن أين أجد الزوجة التي يمكن أن تشاركني ما أنا فيه من قسوة وعذاب؟!

سلمان : ليس في الوجود امرأة تتحمل قسوة الحياة وآلامها كفتيات بلادنا.

حسين : هذا صحيح ولولا ما أشعر به من حياء وخجل نحوك يا صديقي لطلبت منك المساعدة والعون.

سلمان : لو كنت أقدر على تحقيق هذا الطلب لَمَا تأخرت عنك لحظة.

حسين : هل لي أن أطلب يد أختك يا صديقي؟ ولكن هل تسمح لي برؤيتها؟ وما رأي والدك؟ هل يقبلني زوجاً لابنته؟

سلمان : لا أعتقد أن والدي يرفض طلبك فهو دائم الثناء عليك.. أما الرؤية فإنها من المحال فوالدي كما تعهده صعب المراس، فلاتزال التقاليد راسخة في ذهنه ولكني قد أقدم لك نصف الحل.

حسين : وما هو يا صديقي؟

سلمان : لدي صورة فوتوغرافية حديثة لها و يسعدني أن أقدمها لك الآن فإن راقت لك. عرضت عليها الأمر لأخذ موافقتها.

حسين : أشكرك يا صديقي على هذا الوفاء وأرجو أن تعطيني مهلة للتفكير.

سلمان : هذا من حقك يا صديقي وأنا في انتظار ردّك العاجل.

ورغم أن أنصاف الحلول لا ترضي «حسين» لأنه يؤمن بضرورة رؤية من تشاركه حياته و يعجب لهؤلاء الناس الذين لايزالون يتمسكون بتقاليد لا يحكمها

منطق أو يرضى بها عقل واعٍ متفتح.. ولكنه يحسّ براحة نفسية نحو هذه الأسرة التي يعرف الشيء الكثير عنها لصلته الوثيقة بصديقه الوفي (سلمان).. ويمضي إلى البيت فرحاً متهلل الوجه يطيل النظر لصورة زوجة المستقبل. إنها تبدو جميلة وحلوة وتتوفر فيها كل صفات الأنوثة الكاملة وهو واثق من أخلاقها وحسن تربيتها، و يصارح شقيقته هدى بما أزمع عليه ولم تشأ شقيقته أن تبثه مخاوفها من هذا الزواج لأنها تدرك أن العيش مع زوجة أخيها قد يحرمها جزءاً كبيراً من حب أخيها وعطائه وحنانه، وقد يحدث مايعكر الصفو بينهما لأقل سبب، فيدبّ الخلاف والشّقاق، و يستحيل جو البيت الهادي إلى عذاب وشقاء. ولكنها في نفس الوقت تريد سعادة أخيها بعد هذا الحرمان الطويل والعذاب النفسي الذي يعانيه من الوحدة القاسية ومتاعب الحياة المنزلية، ثم إنها على معرفة قليلة بهذه الفتاة التي اختارها لتكون شريكة حياته، فهي تدرس معها في مدرسة واحدة في فصل دراسي أعلى منها. ثم إنها من الفتيات المثاليات في مدرستها، وهي على جانب كبير من الجمال فتقنع نفسها بالأمر الواقع، وتبارك لأخيها هذا الزواج وتطري على جمالها وحسن أدبها ومتانة أخلاقها وغزارة علمها وثقافتها.. و يشعر «حسين» بميل شديد لهذه الفتاة،فتغمره السعادة والبهجة ويحسّ بإشراقة الحياة وبهجتها، يزايله ما كان يشعر به من آلام الوحدة وقسوتها، و يتقدم لأبيها لخطبتها،ورغم إحساس الفتاة بأن هذا الزواج قد يحرمها مواصلة تعليمها إلا أنها وجدت فيه فتى أحلامها المناسب،حيث تتوفر فيه كل صفات الشباب والحيوية التي تطمح إليها كل فتاة. وكان يوم زفافها من الأيام الخالدة التي لاتنسى أبداً.. وهل هناك أعظم فرحة من يوم الزفاف خاصة إذا وجد التقارب والتفاهم والحب بين الزوجين؟

وتسير الحياة بين الزوجين كأجمل ما تكون الحياة الزوجية من سعادة وأمن وحب قرابة عام كامل، وتعود إلى «حسين» حيويته ونضارته و يستعيد ما فقده من ثقة رؤسائه أيام بؤسه وشقائه.. وتمنّى من قرارة نفسه لو تحققت له هذه الحياة السعيدة والاستقرار النفسي منذ وفاة والدته،وندم على هذه السنوات التي أمضاها كئيباً حزين النفس والفؤاد.

ولكن مالي وللماضي فإني لا أزال في مقتبل العمر،ليت أمي على قيد الحياة

لتشاركنا سعادتنا وبهجتنا.ولم يدر «حسين» المسكين ما تخبئه له الأيام المقبلة من مفاجآت.. فالدنيا لاتدوم بهجتها ولا تؤمن فجعتها فزوجته الصابرة رغم كفاحها المر بر من أجل إسعاد «هدى» وتهيئة الجو المناسب لها لمذاكرتها وإعفائها من أعباء حياة المنزل الثقيلة، إلا أنها لاتضمر لها إلا الكراهية والحقد بعد شهور من زواجها. فهي دائماً تناصبها العداء وتتعالى عليها.. فإن فاتت عليها الدراسة يوماً لاستغراقها في النوم وعدم إيقاظها؛ راحت تتهمها بأنها تتعمد هذا حتى تحرمها من التعليم لتصبح مثلها في مستواها العلمي الذي وقفت عنده، وتعيش حبيسة الدار لا هم لها إلا خدمة بيتها، وهي تريد أن تواصل تعليمها حتى الجامعة ودائماً تشعرها بأنها قد حرمتها من حب وعطف أخيها عليها حتى أصبحت لاتراه إلا نادراً يلقي عليها التحية ولاشيء غيرها، لم يعد يعطف عليها و يدللها أو يسألها ما تعلمته في دراستها كعهدها به... فكل حبه وعطفه وحنانه لزوجته وحدها.

وتحبس (هند) زوجة «حسين» آلامها في صدرها وتشيح بوجهها عنها؛فهي تدرك أن «هدى» مصابة بعقدة نفسية، وكثيراً ما نصحت زوجها بأن يغدق على «هدى» حبه وعطفه.. ولكنه يجيبها بأن شقيقته لم تعد طفلة حتى يمعن في تدليلها. وتصمت (هند) المسكينة وتواجه غرور الأخت وحقدها الدفين ونكدها المستمر في صبر وثبات، فهي تحب زوجها ولا تريد أن تعكر عليه صفو حياته وسعادته بعد أن لمست مدى حبه وإخلاصه لها.. ولكن للصبر حدود وللنفس الإنسانية طاقة تقف عندها، وقد فاض الألم (بهند) يوماً ولم تعد تتحمل ضراوة «هدى» ومضايقاتها،ولم تجد وسيلة غير البكاء علّه يخفف عنها مأساتها،و يدخل عليها زوجها الطيب و يتألم لما أصاب زوجته.. ترى ماذا أصاب زوجتي الحبيبة؟ و يقترب منها.

حسين : هند.. هند.. ماذا دهاك يا عزيزتي؟ هل هناك ما يزعجك في البيت؟ أم أن مكروهاً حل بعزيز عليك لاقدر الله؟

هند : لا شيء يا عزيزي إنني أندب حظي في هذه الأسرة..

حسين : لا بد أن «هدى» هي السبب لقد قابلتها عند الباب وأشاحت بوجهها

عنّي وأدركت أن شيئاً ما حدث بينك و بينها فهلاّ خبرتيني بالحقيقة؟

هـنـد : حاولت يا حسين شهوراً طو يلة أن أكسب صداقتها وحبها ولكنها تقابل إحساني بالإساءة دائماً حتى هددتني اليوم بالطرد من المنزل.

حسين : هذا مستحيل فأنت ربّة البيت وسيدته الأولى.. يالها من فتاة حمقاء سأعلّمها درساً لن تنساه طيلة حياتها.

هـنـد : هوّن عليك يا زوجي العز يز فهدى تعاني صدمة نفسية وهي في حاجة إلى حبك وعطفك وأفضل حل أن أعود إلى بيت أبي فترة لترتاح أعصابي وتهدأ نفسي.

حسين : هذا كلام لا يعقل أبداً فقد ضحيت من أجلها بالكثير ولن أسمح لها أن تحيل حياتي من جديد إلى شقاء.. سأعلّمها كيف تحترمك وتقدر تضحيتك من أجلها.

هـنـد : أرجوك يا حسين ألاّ تسيء إليها حتى لا تحطم نفسيتها.. إنها مغرورة، فبالحسنى والتفاهم يتم كل شيء وقد تعود المياه إلى مجاريها.

ولكن حسين لا يرد عليها فهو يعلم أن زوجته الحبيبة إنسانة مهذبة عاقلة لم يجد منها إلا الحب والعطف والحنان والرعاية الكاملة لأسرته.. واتجه إلى غرفة شقيقته والشرر يقدح في عينيه ولكنه لم يجدها،ويخبره هشام أنها قد ذهبت إلى المدرسة هذا المساء لحضور حفلة مدرسية،و يصارحه بأن «هدى» هي سبب كل المآسي وكم نصحها ولكنها لم تعبأ به وتسخر منه.. يالها من فتاة غرة إنها تر يد أن تهدم سعادتي وحياتي، إنها تر يد أن تحطم كيان أسرتنا بعد أن أنعم الله علينا بنعمة الحياة والحب من جديد.. لا.. لا.. لن أتركها سأجعلها حبيسة هذه الدار وهذا أبلغ درس لها لتعود إلى صوابها،و يشتد مرجل غيظه و يطرق مفكراً في الوسيلة التي يعامل بها أخته. و يشعر «حسين» بحركة عند الباب وطرق خفيف لابد أنها قد حضرت ويجري «هشام» ليفتح الباب فيمسك به «حسين» دعها لي يا بني سأفتح لها الباب بنفسي حتى أشفي غليلي وأحطم غرورها لقد جاءت في الوقت المناسب.. وما أن يفتح الباب حتى تصدمه المفاجأة المذهلة لقد كانت «هدى» محمولة على الأعناق بين

الحياة والموت إذ صدمتها سيارة أمام البيت حين عودتها و يتناسى «حسين» حقده على «هدى» و يطبع على جبينها قبلة كلها حنان والدموع تملأ مآقيه.. وتفتح «هدى» عينيها بصعوبة وتحاول الكلام لتقول لأخيها الحبيب سامحني يا أخي الحبيب لقد نلت جزائي.. إن زوجتك ملاك و بقدر ما أسأت إليها أحسنت إليّ.. رجوتك أن تبلغها بالصفح عنّي ليرتاح ضميري. وتغمض «هدى» عينيها إلى الأبد بعد أن صعدت روحها الطاهرة إلى السماء.

فاللهم رحمتك بهذا الشاب المسكين الذي عاش حياة كلها قسوة وعذاب.



الوداع الأخير





الوداع الأخير

في جنح الليل البهيج،وتحت ستار الظلام الكثيف ألقت بثمرة خطيئتها على قارعة الطريق، بعد أن دست بين ثنايا لفّات الشاش الذي خاطت بها ورقة صغيرة كتب عليها سامحني يارب فإني غريبة عن هذه الديار، وسامحني يا إلهي لما ارتكبته من إثم في حق فلذة كبدي بعد أن يئست من إقناع الجاني الآثم الذي غرّر بي، ثم تركني وولّى الأدبار هارباً خوفاً من الفضيحة والعار.. واختفت الأم بعد أن ودعته وفي عينيها دمعة متحجرة وفي نفسها ثورة عاتية وحقد دفين على الرجل الذي استغل ضعفها وتركها نهباً للهواجس، ضحية الندم لتصبح طريدة في هذه الحياة.. وآلت على نفسها أن تسير في طريق العيش الشريف لتكفر عن جريمتها لعلّ الله يغفر ذنبها.. وباتت ليلة ليلاء،تعاني مرارة الحرمان وشدة الألم النفسي،وما أن أشرق الصباح حتى وجدت نفسها تجرّها قدماها إلى حيث تركت وليدها الصغير،ولكنه اختفى وانسابت الدموع من عينيها مدراراً،ورفعت يديها إلى السماء: يارب إنه بريء من كل ذنب فكن به رحيماً وامنحه حبك ولطفك وحنانك.

ثم دلفت راجعة إلى الغرفة المتواضعة التي كانت تسكنها لتبحث من جديد عن عمل شريف تقتات به لتقي نفسها شرّ الذئاب النهمة.

أما وليدها بعد أن تركته ظل مستكيناً في لفّته حتى لفحته نسمة البرد وعضه الجوع فراح يبكي فالطفل لايملك غير البكاء ليعبر به عن شعوره،وصادف أن كان الشيخ عبد الجليل إمام مسجد الحي ماراً بهذه الطريق ليؤذن لصلاة الفجر، وسمع بكاء الطفل فأسرع إليه وسقط في يده. إنه طفل صغير. «لا أحد بجانبه يرعاه» وتلفّت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً فحوقل وبسمل،ثم حمل الطفل بين ذراعيه محتضناً إياه

وقفل راجعاً إلى منزله ليكون في رعاية أسرته حتى الصباح ليبلّغ عمدة الحي عنه.

و بعد أن أدى صلاة الصبح في المسجد أخذ يعظ الناس كعادته لما فيه خيرهم ثم قص عليهم قصة الطفل المسكين وكان في أحد أركان المسجد رجل يستمع إلى القصة من حذافيرها فتحركت مشاعره الإنسانية و بدافع غريزة الأبوة التي حرم منها مايقرب من خمس سنوات مع زوجته التي منحته حبها وحنانها،تقدم إلى إمام المسجد فحياه،وقال له: يا شيخ عبد الجليل رب صدفة خير من ألف ميعاد. أنت تعرف أني في شوق جارف إلى الخلف،وقد عملت المستحيل من أجل الإنجاب وطرقت باب أكثر من طبيب حتى ضاقت بزوجتي السّبل ذرعاً،وخيّرتني في أن أطلّقها لأتزوج بغيرها لعلّي أوفق في إنجاب طفل يملأ حياتي و يرثني من بعدي، ولكني أحب زوجتي!! إنها مثال للطهر والعفاف والخلق الحسن!! ومحال أن أجد لها مثيلاً في هذه الحياة. وحياتنا لو سارت على هذا المنوال قد تتحطم على صخرة العقم الذي أصاب زوجتي. وها أنذا أجد باب الأمل يفتح لي على مصراعيه ليعيد إشراقة الحياة وسعادتها بيني و بين شريكة حياتي،وقد استمعت إلى قصة الطفل كلها، وأنا على استعداد لتربيته كابن لي فأين هو؟ وانفرجت أسارير الشيخ عبد الجليل عن ابتسامة مفعمة بالفرح والأمل. وقال: ما أعجب مصادفات القدر إنها حكمته الإلهية سبحانه إنه على كل شيء قدير!! سيكون لك الطفل بعد أن نتم ما يلزم له من الإجراءات الرسمية، وثق أن الله سوف يجزل لك الثواب. انتظرني في البيت وسأحمله إليك بنفسي قبيل الظهر.

وودّع الثري «صالح» الإمام وأسرع الخطو إلى داره متهلل الوجه يملأ قلبه الفرح والسعادة،وأحسّت الزوجة الحزينة الفؤاد حين استقبلت زوجها بالباب أن زوجها تغمره السعادة والبهجة على خلاف عادته وساورها القلق النفسي. ترى ماسرّ هذه السعادة المفاجئة؟ أهي صفقة تجارية رابحة كسبها أم إنسانة أخرى تريد انتزاعه مني؟ وطبع الزوج السعيد على وجنتيها قبلة حانية.. ثم قال لها: لقد انتهى الأمر وحلّت عقدتنا. مبروك يا حبيبتي فقد رزقنا بولد. وارتسمت على شفتي زوجته ابتسامة حزينة وظنت أن زوجها لابد وأن اقترن بغيرها دون أن يشعرها حتى لايجرح كرامتها وخفضت رأسها واسترسلت تبكي وتشهق. ونظر إليها الزوج في غرابة وأدرك

ما يجول بخاطرها من أفكار، ولم يتمالك نفسه فأرسل ضحكة عالية وكانت صدمة عنيفة لها إذ تخيلت أنه يستهزىء بها فأغمي عليها.. وتألم لما أصاب زوجته فحاول أن يسري عنها حتى إذا ما أفاقت من الإغماء وجدت نفسها بين ذراعي زوجها ينظر إليها في حنو وعطف وحب،وقال لها: ليتني أخبرتك بحقيقة الأمر حتى لاتنزعجي اطمئني فلن تكون إنسانة في حياتي سواك وما قصدت إلا إدخال السرور إلى قلبك، فالطفل الجديد هدية الأقدار التي منحته لي هذا الصباح، ليكون لنا ابن يملأ علينا البيت حبًّا وسعادة وتهللت أسارير الزوجة الوفيّة وطلبت من زوجها الصفح والمغفرة لسوء ظنها به، وعادت إلى البيت الحزين نبضات الحياة من جديد، واستقبلت المولود الجديد بحفاوة وترحاب وأطلق عليه اسم «خالد» تيمّناً باسم أبيه.. وهكذا قدر لـ«خالد» أن يعيش في كنف هذه الأسرة المترفة معززاً مكرماً، وأن يجد كل الرعاية والحنان والعطف. وأنعم الله على هذه الأسرة الوادعة بالرزق الواسع والخير الوفير.. وتوثقت عرى الحب والمودة بين الزوجين بأشد مما كانت عليه في السابق،وتفاءلا خيراً بهذا الطفل وكان شغلها الشاغل. إذا بكى أسرعت إليه الأم لتحمله بين ذراعيها في حنان بالغ. وإن ألمت به وعكة بسيطة سهر الاثنان بجانبه، وأحضرا له أمهر الأطباء لعلاجه، وأشار عليهما بضرورة وجود مربّية ترضع الطفل وتعنى به وعارضت الزوجة في بداية الأمر وقالت: إنه ابني وسأسهر على راحته وعنايته، ولكن عدم إقبال الطفل على الرضاعة الصناعية جعلها تخضع للأمر الواقع وبدأ البحث عن مربّية وهنا تتدخل الأقدار من جديد لإنقاذ هذا الطفلِ المسكين مما أصابه من هزال واعتلال في صحته، فأمه الحقيقية شاء لها حظها العاثر أن تعمل كخادمة لدى صديق عزيز للثري «صالح» فرشحها لتكون مربّية لهذا الطفل وقال له: ما رأيك في «زهرة»؟ إنها امرأة غريبة عن بلادنا لا أهل لها ولا وطن مات طفلها الرضيع منذ عام،وهي خير من يقوم بإرضاع طفلك. واستبشر «صالح» خيراً بهذا النبأ،ووافق على أن تكون هذه السيدة الغريبة مرضعة لهذا الطفل لعله يشفى ويسترد صحته. ولم تدر الأم المسكينة أن القدر قد استجاب لدعائها لتعيش مع طفلها الذي ظنّت أنها قد فقدته إلى الأبد.. وأحسّت بشعور غريب بجاذبية نحو هذا الطفل، ولم تكن تفكر بأنها أمام ابنها الحقيقي لأن مخدومها أفهمها أن أم هذا الطفل قد نصحها الأطباء بعدم إرضاعه. وحمدت الله على

أن الله قد عوضها بطفل آخر في عمر ابنها الذي فقدته، فأخلصت في خدمته وتربيته وأقبل عليها الطفل واستكان إليها وبدأت صحته في تحسن مستمر. وسرّ الوالدان بالمربية «زهرة» وأجزلا لها العطاء وبدأ «خالد» ينمو،يكبر ويشتد عوده وتتحسن صحته، يجد الرعاية والحنان في كنف هذه الأسرة الطيبة حتى أصبح في سن التعليم، فألحقه والده بمدرسة ممتازة ولم يدّخر وسعاً في الإشراف على تعليمه وتهذيبه، وتميّز «خالد» على أقرانه في الفصل الذي كان يدرس فيه بما وهبه الله من ذكاء فطري وقّاد. فكان الأول دائماً واستمر يواصل تعليمه في جميع مراحل التعليم في همّة ونشاط حتى أنهى مرحلة الشهادة الثانوية العامة ونجح فيها بتفوق، وكانت فرحة كبرى للوالدين «وزهرة» وأقام له والده وليمة ضخمة دعا إليها زملاءه وأعضاء أسرة مدرسته والأصدقاء.. وجاءت اللحظة الحاسمة. إذ أن ما حصل عليه «خالد» من درجات علمية تؤهله أن يسافر في بعثه دراسية إلى الخارج. وكان «خالد» توّاقاً إلى العلم والمعرفة ومواصلة تعليمه الجامعي. وجزع الوالدان لهذا النبأ فـ«خالد» قد أصبح بالنسبة إليهما كل شيء في هذه الحياة.. فهل يستطيعان فراقه؟ إنه سيرحل إلى بلد بعيد. فمن الذي يعتني به؟ وفكرا في أن يبقى بجانبهما ليدربه والده على التجارة حتى يدير شؤون محلاته التجارية ولكن هذا القرار قد يكون صدمة عنيفة لـ«خالد» وصارحه بما كان يعتلج في نفسه من رغبة في إبقائه بجانبه،وأحس «خالد» بامتعاض شديد وظهرت على محياه مسحة من الحزن والألم فانهالت الدموع من عينيه لأن هذا معناه ضياع أمله في تحقيق ماتصبو إليه نفسه من علم.. وأدرك الوالد أن هذا القرار معناه القضاء على «خالد» وقال له: يابني ليعلم الله أني لا أريد لك إلا كل الخير، وما اعتراضي على هذه الرحلة إلا خوفي من أن ينالك مكروه وأنت بعيد عنّا لا أحد يرعاك وأخشى أن يجرفك تيار المدنية في هذا العالم الغريب فتنساق في حياتهم وتجاربهم في عاداتهم وطباعهم، وفي هذا ضياع لكل ما بذلناه في تربيتك وحسن تنشئتك،وتأثر «خالد» مما سمعه وقال له: كن مطمئناً أيها الوالد العزيز فإن التربية الإسلامية التي قد نشأت عليها في بيتنا وفي مدارسنا وفي بلادنا ستكون لنا درعاً قوية تحمينا من كل مفاسد الحياة هناك، وشباب بلادنا ممن سبقوني في هذا المجال أثبتوا للعالم أجمع أنهم خير أمة.. وأن بريق الحياة الزائف لم يستطع أن يحطم ما ورثوه من تقاليد، وتربية

فاضلة فعادوا إلى بلادهم وهم أشد إيماناً بوطنهم وحرباً عواناً على كل مقلد لحياة المدنية الزائفة، بعد أن عاشوا تجربتها الدامية وقاسوا مرارتها. وشعر الوالد بارتياح عميق لحديث ابنه وقال له: على بركة الله يابني والله يحدوك برعايته وعنايته، وطبع «خالد» على وجنتي والده قبلة حارّة وراح يزف بشرى موافقة أبيه لكل من صادفه، والدته الحنونة، مربيته الوفيّة «زهرة»، أقرانه الأوفياء.

وفي مساء اليوم التالي كان الوالدان يتجاذبان أطراف الحديث في شرفة دارهما الجميلة المطلّة على البحر يستعرضان الماضي الجميل في دنيا حياتهما وكيف ساقت الأقدار إليهما الابن الوفي خالداً؟ ودار الحوار التالي بينهما:

صالح : (يخاطب زوجته) كم أنا سعيد يا سلمى بحياتنا.

سلمى : البركة في «خالد» يا زوجي العزيز إنه سرّ هذه السعادة كلها.

صالح : إنني أشعر من أعماق فؤادي بأن خالداً أصبح فتى يافعاً وكم أنا فخور به. ترى ماذا كان يحدث له لو لم ترسلني الأقدار إلى صلاة الفجر لأستمع إلى قصته الحزينة من الشيخ عبد الجليل..

وصادف سوء حظ أمه الحقيقية «زهرة» إذ كانت في هذه اللحظة قادمة إلى الشرفة تحمل صينية الشاي لتقديمها لهما.. وصافح سمعها المقطع الأخير من حديث صالح فتسمرت في مكانها ودعاها حب الاستطلاع أن تعرف باقي القصة فتوارت خلف الستار وقلبها يخفق كالطير المذبوح..

سلمى : بالله دعنا من هذا يا أبا «خالد» ولا تذكرني به «فخالد» قد أصبح الآن ابننا ولا أحد يعرف قصته سوانا إلا الشيخ عبد الجليل.. ولكن قل لي كيف تصبر على فراقه طيلة دراسته في الخارج،أكاد أشعر بغصة في حلقي وأحس بالاختناق منذ أن صمم خالد على إكمال دراسته ولا أدري كيف تكون حالنا بعد فراقه؟

صالح : تشجعي يا «سلمى» إن ابننا «خالد» مثال حي للشباب المتمسك بخلقه ودينه.

سلمى : طبعاً هذا بفضل تربيتك له يا أبا خالد.

صـالـح : وأنت أيضاً يا «سلمى» لقد أحسنت تنشئته وتربيته.
سلـمـى : الله يرعاه ويحفظه و يعيده إلينا سالماً غانماً.

وأقبلت «زهرة» تحمل صينية الشاي وقدمتها لسلمى ثم عادت مهرولة إلى غرفتها تفكر فيما سمعته عن قصة «خالد» ترى هل «خالد» ابني إن نفسي تحدثني أنه ضناي، انه فلذة كبدي منذ أن وطئت قدماي عتبة هذا البيت. وأخذت تبكي في حرقة وألم إنها تريد أن تعرف سر «خالد» ولكنها لاتجرؤ على مخاطبة مخدومها. لابد أن تذهب إلى الشيخ «عبد الجليل» وتسأله عن قصة «خالد» إنه الوحيد الذي يعرف سره.. وفي منزل الشيخ «عبد الجليل» عرفت «زهرة» كل شيء عن «خالد» رحماك يارب ما أوسع رحمتك وعفوك! ولكن ما العمل يا شيخ عبد الجليل؟

هل أصارح ابني وفلذة كبدي بكل شيء قبل رحيله إلى الخارج؟ وماذا ستكون النتيجة؟ وما أثر ذلك في نفسه؟ وكيف يتسنّى لي إثبات بنوّته من المجرم الذي ضلّل بي وأغواني بكلماته المعسولة؟

وفي هدوء رد عليها الشيخ «عبد الجليل» قائلا: هذه إرادة الله ياابنتي ولو عرف «خالد» أنك أمه الحقيقية لحطمت نفسيته وكنت سبباً موجعاً في تعاسته وقضيت على حياته وآماله الكبار. واحمدي الله أن وهبه الله هذه الأسرة الطيبة التي كفلت رعايته وتبنته وحافظت على سرّه حتى اعتقد الناس أنه ابنهم الحقيقي، وردت «زهرة» والدموع تخنقها والحسرة تملأ قلبها المكلوم: ولكنه فلذة كبدي أريده أن يقول لي: يا أماه إنني أشعر بوخز الألم والخزي والعار.. وواساها الشيخ مذكراً إياها بأن أي تصرف منها قد يؤدي بحياة ابنها والمصارحة بالحقيقة في مثل هذه المواقف الصعبة أشد فتكاً من السهام.. تجلّدي يا ابنتي وكوني عاقلة وشجاعة،فمن الخير ألاّ يعرف ابنك الحقيقة المرة واسجدي لله شكراً على رحمته ولطفه.

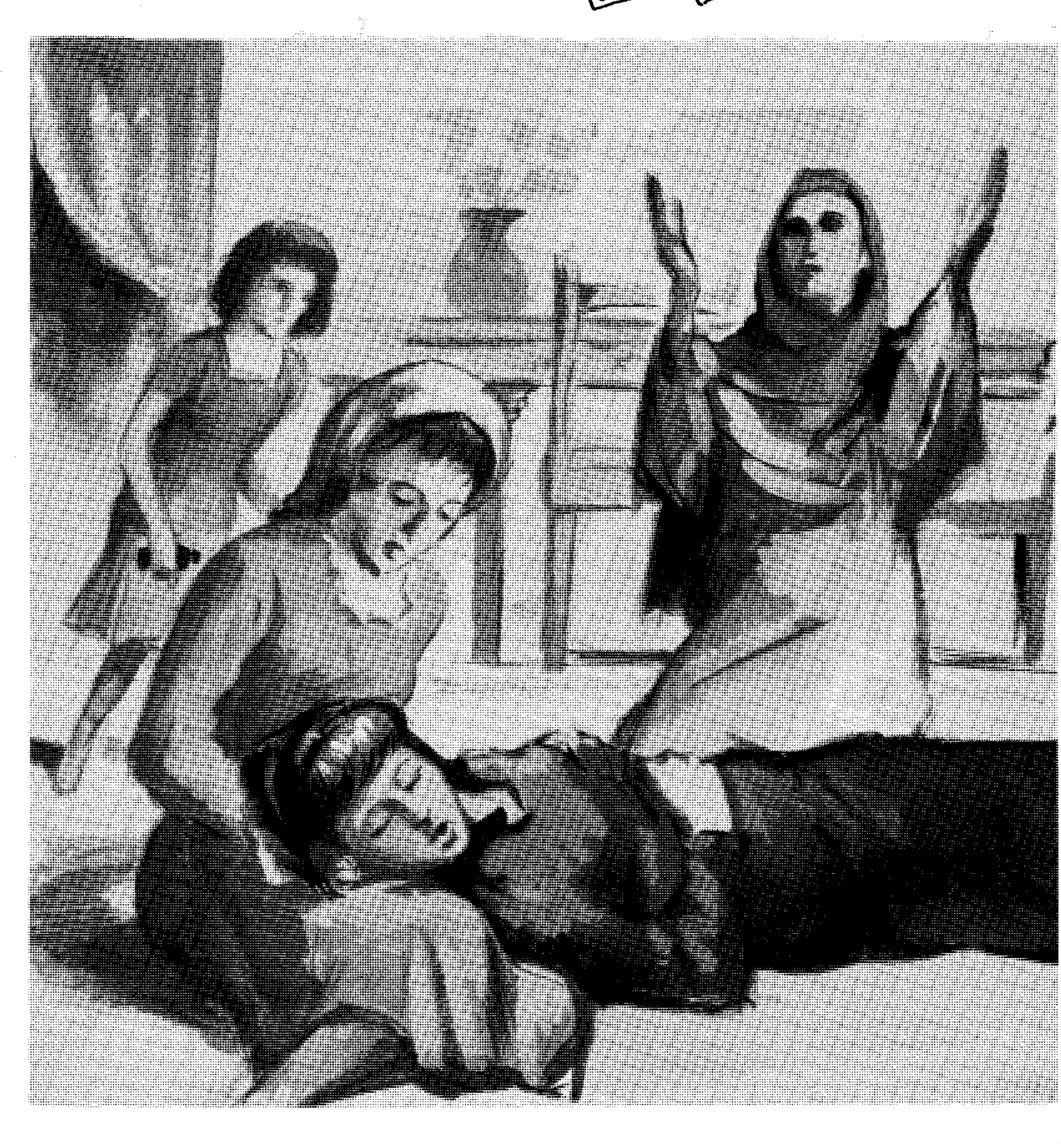
ولم تجد «زهرة» بدًّا من الإذعان للأمر الواقع والرضى بما كتبه الله لها ودفنت آلامها في صدرها.. حتى إذا حانت ليلة الوداع الأخير لم تذق «زهرة» طعم النوم فقد

كان الموقف أقوى من أن تتحمله أعصابها الواهية فظلت تبكي في حرقة وألم حتى إذا جاء الفجر وحان رحيل خالد ودّع أمه سلمى الحزينة على فراقه وركب بجانب والده في سيارتها الفارهة. وقبل أن تمضي بهما السيارة إلى المطار تذكر «خالد» شيئاً. إنه لم يودع مربيته العزيزة «زهرة» واستأذن من أبيه لحظة وطرق باب غرفتها ولكن لا أحد يجيب لابد أنها تغط في نوم عميق وفتح الباب في رفق حتى لا يزعجها وهاله ما رأى. لقد كانت مسجاة على الأرض واقترب منها فوجدها قد فارقت الحياة وعلى شفتيها ابتسامة الرضى بما قسم الله لها وانحنى عليها وراح يمطرها بقبلاته و يبلل وجهها المشرق بدموعه الساخنة،وأقبل عليه والده في جزع وكان موقفاً مؤثراً وغشى الجميع موجة حزن على «زهرة» الإنسانة الوديعة الطيّبة،ومضى «خالد» في طريق المجد بعد أن دفن سرّه إلى الأبد.





عودة الحياة





عَودة الحيَاة

أوصدت الباب على نفسها وقلبها يعتصر من الألم و يعلو ويهبط وتشتد ضرباته وخفقاته والصداع يكاد يفتك برأسها الصغير.. تريد أن تستقر على رأي لمواجهة القنبلة المحرقة التي ألقت بها هذا الصباح امرأة كانت في يوم ما جارة لأمها الحنون. وقد سافرت وانقطعت كل صلة لها بهذا البلد، ولكنها عادت اليوم فجأة لتحطم حياتها الزوجية بكلمة واحدة نطقت بها فاهتزت لها أسرة الزوجية،وكانت كالسهم الناري ألقاه رام بارع فأشعل النار في كل شيء حتى جعله هشيماً تذروه الرياح، وألقت «منى» بنفسها على وسادتها بعد أن أعياها التفكير، وراحت تندب حظّها العاثر، إذ لم يمض على زواجها سوى شهور قلائل. وأخذت تبكي في حرقة ومرارة ولم تكتف بهذا فقد كان الخبر المؤلم الذي نزل عليها كالصاعقة أعماها عن كل شيء.. فراحت تشد شعرها وتضرب بيديها على صدرها.. ثم أخذ بكاؤها الخافت يرتفع و ينقلب عويلاً، وفزعت والدتها المسكينة وأقبلت عليها مسرعة وساءها أن ابنتها في حالة سيئة كمن أصابه مسّ من الجنون وربتت على ظهرها وراحت تمسح بأناملها الرقيقة دموع ابنتها.

الأم : منى .. منى .. ماذا دهاك يا ابنتي؟ هوّني عليك!!. فماذا يفيد كل هذا؟

منى : اتركيني أمت يا أمي فلا حياة لي بعد اليوم.

الأم : ولكنها إرادة الله يا ابنتي.

منى : إنها كاذبة .. كاذبة فكيف تصدقونها؟

الأم : ولكنها أقسمت لنا يا ابنتي أنها أرضعتك «وسامي» من ثدي واحد. وهذا يجعل استمرار زواجك مستحيلاً فـ«سامي» الآن أخوك من الرضاعة شرعاً.

مـنـى : وهل أنت وأبي عالمان دينيان حتى تفصلا بالرأي في هذه المسألة.
الأم : الأمر بيّن يا ابنتي كوضح الشمس، لايحتاج إلى برهان.
مـنـى : بالله لا تقطعي حبل الأمل يا أماه. دعي والدي يستفتي العلماء ربما يجدون حلاً لمشكلتي.
الأم : كما تشائين يا ابنتي.
مـنـى : وماذا سيكون موقف «سامي» .. إنني أخشى أن يجنّ لو عرف هذا.
الأم : سأترك لأبيك شرح كل شيء له بعد عودته من السفر.

ونسيت منى نفسها وآلامها ولم تعد تفكر إلا في «سامي» الانسان الذي أصبح جزءاً من حياتها بما أنعم الله عليهما من حب دافق وسعادة غامرة حتى أصبحا مضرب المثل في السعادة الزوجية الكاملة.. ترى أين أنت الآن يا زوجي الحبيب؟ لو كنت أعرف عنوانك الجديد في البلد الذي تزورها حالياً لأخبرتك بكل شيء ولكن هل هذا يحل المشكلة؟! إنه سيزيدها تعقيداً سيكون الخبر صدمة نفسيه له.. فأنا أعرف الناس بـ«سامي» إنه إنسان عاطفي رقيق القلب وقد يحدث له ما يسيء إليه لو عرف الحقيقة المرة.. من الخير أن أنتظر، فمن يدري ربما يحل الموضوع قبل حضوره وشعرت بارتياح نفسي ينفذ إلى أعماق فؤادها بعد أن استقرت على هذا الرأي ورفعت يديها إلى السماء!!! يارب لقد وهبتنا الحب ونعمة الحياة الزوجية فكن بنا رحيماً.. يارب أنت أعلم بما في نفسي فامنحني الصبر وارحمني مما أنا فيه. إنك واسع الرحمة وقادر على كل شيء..

وأغمضت جفنيها ولكن النوم أبى إلا أن يجافي عينها فظلت ساهرة شاردة اللب ساهمة الفكر والدنيا من حولها يلفها سكون عميق، فلا تسمع غير نباح الكلاب وصفارة الحارس الليلي الذي نشط تلك الليلة على خلاف عادته ليخفف عنها ما تشعر به من همّ وقلق. فساعات الليل لمن في مثل حالتها النفسية السيئة لانهاية لها. وكأني بها ولسان حالها يقول:

«ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثل؟

وعلى ضوء الفجر الجميل بدأ النسيم العليل يداعب أجفانها الساهرة فأحسّت بشيء من الاطمئنان بعد المعركة القاسية الحامية الوطيس مع آلامها فاستسلمت للنوم لتريح جسمها الضاوي وعقلها المضني الذي أجهده كثرة التفكير.

أما والداها فلم تكن حالهما بأقل منها إنها وحيدتهما الغالية وعلى استعداد للتضحية من أجلها بكل شيء فهي ثمرة حبهما وكفاحهما في هذه الحياة. ولم يترك الأب عالماً فاضلاً إلا وسأله عن مسألة ابنته وكان الجواب واحداً لايتغير «عدم شرعية هذا الزواج» وهو حائر لايدري كيف يواجه ابنته الغالية بهذا النبأ القاسي. وقطعت عليه زوجته ما كان يعمل فكره فيه.

الزوجة : وما العمل الآن يا أبا منى؟. إنني خائفة عليها.
الأب : لست أدري يا عزيزتي ماذا أنا فاعل؟.. مسكينة منى!! إنني أخشى عليها هول الصدمة.
الزوجة : لا حيلة لنا في مواجهتها بالأمر الواقع.
الأب : ولكنها قد تصاب بصدمة نفسية.
الزوجة : هذا ما أتوقعه وأخشاه.

وصدق حدس الوالدين .. فما ان عرفت منى بما أفتى به العلماء حتى خرّت مغشياً عليها ولم تتحمل أعصابها ذلك الموقف الرهيب، وأسرع والدها إلى طبيب مختص وأحضر على الفور ولم تفلح مهارة الطبيب في إنقاذ «منى» فقد كانت نبضاتها تدقّ ببطء وقسمات وجهها تعلوه صفرة داكنة.. وأشار الطبيب بنقلها إلى المستشفى حالاً لإسعافها قبل أن يتضاعف الخطر و يفلت زمام الموقف من يده.. ووسط موجة من الآلام والحزن حملت «منى» إلى المستشفى وأجريت لها إسعافات سريعة وبدأ نبضها يتحسن ولكنها لاتعي بمن حولها وظل الأبوان ساهرين بجانبها يدعوان الله من الأعماق أن ينقذ حياة «منى» من الخطر الذي يهددها. وفي اليوم الثالث بدأت أهدابها المتكسرة تتحرك وصوت خافت يخرج من فمها الصغير.. ولكنها لا تقوى على

الكلام، وردت الروح فيمن يقف بجوارها: طبيبها المعالج ووالداها لأن هذا معناه أنها قد تعدّت مرحلة الخطر فاللهم حكمتك ولطفك، وأشار الطبيب بعدم إزعاجها وطمأن والديها بأنها سوف تتحسن في الغد.

وفي اليوم التالي بدأت تفتح عينيها في صعوبة بالغة وكأنها تبحث عن شيء عزيز فقدته. ولما لم تجده أغمضتها مرة ثانية، واقتربت منها أمها الحنون، وأمسكت بيدها في رفق وراحت تمسح عنها حبّات العرق الفضي الذي تساقط من جبينها. وفتحت منى عينيها مرة أخرى وراح قلب الأم يدقّ في عنف وغلبتها دموعها ولكنها أسرعت بطرف قميصها لإزالتها حتى لا تزيد آلام ابنتها. وفي نبرات حزينة بدأت تتحدث إلى أمها.

منى : لماذا جئتم بي إلى هذا المستشفى؟ وما هذه الاسطوانة البيضاء التي بجانبي؟

الأم : (في تأثر بالغ) لا شيء يا ابنتي إنها وعكة بسيطة وسنعود إلى البيت حالما تستردين صحتك.

منى : البيت !!! وتخنقها العبرات، فتبدأ في البكاء.

الأم : يا ابنتي كفى بكاء وارحمي نفسك.

منى : أنا لم يعد لي بيت فالموت أرحم لي من الحياة.

الأم : حرام عليك يا ابنتي فلا تقنطي من رحمة الله.

منى : قد كان لي أمل. أما الآن فقد انتهى كل شيء.

الأم : إنك تحطمين نفسك .. فحرام أن تسعيْ إلى حتفك بنفسك.!!

منى : ما حياة الدنيا إلا متاع قليل والآخرة خير وأبقى.

الأم : إنك لا تزالين في عنفوان الشباب وفي عمر الزهور.

منى : (تضحك في هيستريا) شباب.. زهور.. أما ترين حالي لقد أصبحت حطاماً.

الأم : إنها أزمة بسيطة وستعود إليك نضارة شبابك فلا تيأسي.

منى : أيمكن أن يحدث هذا.. لا أظن؟ مستحيل!

الأم : ولِمَ هذا التشاؤم يا ابنتي.. إن الله على كل شيء قدير.

منى : آمنت بربي وبالقدر خيره وشره.. ولكن قلبي يقطر أسى على «سامي».. وأخشى أن يحدث له ما حدث لي، وتخنقها العبرات فتبكي.

الأم : (في تأثر) إن «سامي» يا ابنتي رجل يستطيع أن يتحكم في أعصابه وليس مثلنا تنهار أعصابنا لأقل شيء.

منى : ولكن سامي يحبني وهذا ما يخيفني.

الأم : ولكن شريعة الله وحكمه أقوى من الحب ومن أي شيء آخر وسامي رجل متعلم مثقف وسوف يدرك هذا من تلقاء نفسه..

منى : آمنت بالله وحكمه..

وتُسر الأم الحزينة لهذه النتيجة التي وصلت إليها ولم تكن تعلم كيف أوتيت كل هذه البلاغة والحكمة التي سرت كالسحر في نفسية ابنتها؟ وتطبع على وجنتيها قبلات حارة تعبيراً عن رضاها وحبها وتشعر «منى» بهذا الحنان الدافق فتغشاها سِنَة من النوم ولكن خيال «سامي» لا يريد أن يفارقها فتغمض عينيها علّها تنساه، ولكن هيهات فقلبها يحدثها بأن «سامي» سيعود إليها إن عاجلاً أو آجلاً ودليل المؤمن قلبه وفضلت أن تعيش لحظات خالدة في دنيا الأحلام مع الإنسان الذي أغدق عليها كل حبه وحنانه ولم تشأ الأم الحنون إزعاجها بعد أن رأتها مستغرقة في نومها وعادت إلى البيت لتحمل البشرى السارة إلى زوجها الحزين الذي يتلهف لأي خبر سار عن تحسن صحة ابنته ومهجة فؤاده وقلبه.. وتفاجأ بصورة «سامي» وسكون رهيب يخيّم على الدار وشحوب وقلق على محيا «سامي».

وتشفق عليه والدة «منى» فتهرع إليه وما أن يبصرها حتى يشد على يدها يقبلها وتحتضنه الأم كطفل صغير والدموع تسيل من عينيها.

سامي : ما هذه الدموع التي تملأ عينيك أين «منى»؟؟ أين عمي؟؟

الأم : إنها دموع فرح اللقاء بك يا بني «ومنى» وعمك بخير فاطمئن.

سامي : وأين هما الآن؟

الأم : عمك في غرفة نومه وهو قادم حالاً.

سامي : ومنى؟

الأم : إنها في المستشفى يا بني.

سامي : (في هلع) مستشفى! يا إلهي ماذا حدث لها؟ لقد تركتها في أتم صحة.

الأم : وعكة بسيطة وقد زالت والحمد لله.

سامي : مستحيل .. مستحيل .. أريد أن أطمئن عليها. هيا بنا إلى المستشفى فلا داعي للانتظار.

ويدخل عليهما الأب والألم يكسو وجهه ويحتضنه سامي وجسمه يرتعش كعصفور وليد.. أصابه برد.

سامي : لماذا لم تبرق لي يا عمي بالخطر الذي حاق بزوجتي العزيزة؟

الأب : ليس هناك ما يدعو للإزعاج يا بني.. إنها أزمة وقد مرت والحمد لله.

سامي : أزمة !! وعكة بسيطة.. لا أكاد أفهم شيئاً. أنتما تخفيان عني شيئاً لا بد أن زوجتي أصابها مكروهاً. دعوني أراها وأطمئن عليها. أين هي؟ وفي أي مستشفى؟

الأب : ليس الآن يا بني.. إن ذهابك إليها قد يضاعف من آلامها ومن يدري فقد تعود إليها أزمتها المرضية مرة أخرى؟ فتقضي عليها.

سامي : أمر يدعو للغرابة والدهشة .. أعتقد أن رؤيتها كافية لمحو آلامها وانتعاش صحتها.

الأب : لست أدري يا بني كيف أصارحك بالحقيقة؟

سامي : أفصح يا عماه فإن غموضك يحيرني ويحطم أعصابي.

الأب : « منى » لم تعد تصلح لك زوجة يا بني.

سامي : ماذا تقول؟ هل أفهم من هذا أنها أصيبت بحادث وأصبحت عاجزة أو مشوهة؟. أنا راض بها،إنها زوجتي ولن أتخلّى عنها.

الأب : (في تأثر) إنك لم تفهم ما أعنيه يا بني.. « منى» قد أصبحت محرّمة عليك شرعاً. إنها أختك!!!

سـامـي : (في دهـشة واستغراب) هاه!! من قال هذا؟!! مستحيل.. مستحيل.. صارحني بكل شيء يا عماه.

و يروي الأب الحز ين كل شيء لسامي وتغشاه موجة حزن قاسية و بعد تفكير عميق يقول «سامي» في انفعال وحدّة: لا.. لا.. لاأكاد أصدق هذا فأمي رحمها الله لم تشعرني يوماً بأن امرأة ما أرضعتني في حياتي،وقد كانت تعرف أني أحب «منى» من كل أعماقي وكان أحب شيء إلى نفسها أن تراني أزف إلى «منى» ولكنها ماتت قبل أن تتحقق لها أمنيتها الغالية. ولو كانت تعرف هذا لكانت أول معترض على زواجنا ولكنها باركت خطوبتنا بل هي التي تقدمت لخطبة «منى».. أيعقل هذا؟ لابد أن هذه المرأة لاتعي ما تقول أو أصابتها نوبة جنون.!!

وفي هدوء أجاب الوالد الحز ين.. والدة «منى» أخبرتني أنها في أكمل صحتها العقلية وهذا ما يحيرني و يقض مضجعي. ولكني أخشى يا عماه أن يكون في الأمر التباس و يلح على عمه في مواجهة تلك المرأة.

وفي بيت (أم الخير) المرأة التي كانت سبباً في تعاسته الزوجية بدأ سامي يمطرها بوابل من الأسئلة وكان جوابها لايتغير إنها متأكدة من إرضاعه «ومنى». وهل يمكن أن أنسى يابني العلامة المميزة التي ولدت بها وميزك الله بها عن سائر خلقه حتى إن والدتك رحمة الله عليها قالت لي يوماً أحمد الله أن ابني لم يولد بنتاً وإلا حرت في تزويجها.. و يثير هذا السؤال دهشة «سامي» و يبدأ يتحسس هذه العلامة المميزة.

سـامـي : (في انفعال) وأين هذه العلامة المميزة يا خالة. لاأكاد أرى شيئاً؟
أم الخير : اخلع حذاءك الأيمن وجوربك وسترى كل شيء بنفسك.
سـامـي : لك ما شئت يا خالة ويخلع حذاءه وجوربه أين هي؟ أين؟!!
أم الخير : يا للعجب أين اختفى اصبعك السادس الصغير.
سـامـي : (في دهـشة) ماذا تقولين.. إصبعي الصغير!! إن قدمي لايوجد بها شيء من ذلك. لقد ولدت هكذا طبيعياً كسائر خلقه.
أم الخير : ألم تجر لها عملية جراحية !

سامي : لا شك أنك تهرفين أو أصابك جنون.!!

أم الخير : سامحك الله يا بني. إنني لأتذكر هذا الإصبع جيداً كما أتذكر نفسي الآن.

سامي : ولماذا أنا وحدي صاحب هذا الإصبع؟ ألا يحتمل أن تكوني أرضعت إنساناً آخر «أسامة» مثلاً؟

أم الخير : (في دهشة واستغراب) «أسامة»؟! ومن يكون هذا الإنسان وما دخله؟

سامي : إنه ابن عمي، يصغرني بعام واحد ماتت أمه بعد ولادته وربينا تحت سقف واحد.

أم الخير : هذا محتمل يا بني.. أيمكن إحضاره لي حتى أتأكد بنفسي؟

سامي : سأحضره لك حالاً يا خالة.

وفي سرعة البرق يمضي سامي لإحضار ابن عمه أسامة وهنا تتكشف الحقائق فأسامة هو صاحب العلامة المميزة الذي أرضعته أم الخير، وتغشى الجميع موجة فرح وسعادة و ينطلق «سامي» كالسهم إلى زوجته العزيزة ليزف إليها البشرى السارة وتذهل «منى» للمفاجأة التي حملها إليها «سامي» ولم تكن تتوقعها.

ويمضي ركب الحياة بها في سعادة وأمان واطمئنان، بعد أن زاح الكابوس الثقيل الذي كان جاثماً عليهما فما أجمل عودة الحياة!! حياة الحب الخالد.. والسعادة الزوجية الكاملة!!




زوجة من السماء



ثروة من السماء

عانى في طفولته من شظف الحياة وقسوتها ما يعجز القلم عن التعبير عنه.. وشب يتيماً معدماً وظل يتخبط في مجاهل هذه الحياة لا شيء يملكه إلا ذكاءه الخارق، ولوشاء له حظه الطيب أن تبتسم له الحياة.. و ينال قدراً من العلم لكان له شأن آخر ولكن العصر الذي عاش فيه، كان قاصراً على أبناء الأثرياء ممّن وهبهم الله المال الوفير والجاه والسلطة.. ولهذا لم يكن يطمح إلى التعليم وهو على ما هو عليه من بؤس وشقاء وفقر مدقع.

ومضى كغيره في درب الحياة الطويل معتمداً على نفسه.. عمل خادماً في أكثر من بيت حتى إذا نما عوده، وكبر لم يعد له مكان للعمل في أوساط البيوت، ولكنه شق طريقه مناضلاً مثابراً على الكفاح ما بين خادم في مطعم أو عامل في مخبز أو متجر.. واستطاع خلال عمله أن يقتر على نفسه ليوفر بعض المال الذي يجعل له كيانه في هذه الحياة، و يرتفع بنفسه عن هذه الأعمال الدنيا.. ونجح فيما خططه لنفسه.. واستطاع أن يصنع في ورشة نجارة لوحة دائرية من الخشب كتلك التي يستعملها الجوالة من بائعي الفواكه، ومضى إلى حلقة الخضار والفواكه ليشتري بعض الفواكه بالجملة ليبيعها لحسابه الخاص متنقلاً من شارع إلى آخر، ومن حارة لأخرى سعيداً مغتبطاً بعد حياة الذل والشقاء التي شرب كأسها المر ممّن عمل لديهم من أصحاب الأسرة أو المتاجر أو المخابز..

وظل فترة من الزمن يعمل في هذه التجارة البسيطة التي كانت تؤمّن له حياة معيشية متواضعة.. وأجر له غرفة صغيرة يأوي إليها حين ينال منه الجهد والتعب مبلغهما محاولاً أن يدخر جزءاً كبيراً مما يربحه في إناء نحاسي داخل غرفته الحقيرة آملاً

في أن يتاح له استئجار محل لبيع الفاكهة ليريح نفسه وجسمه من عناء السير في الأزقة والشوارع..

وتحقق له ما كان يتمناه.. واستطاع أن يحصل على دكان صغير في وسط المدينة وبدأت تجارته تنتعش و يزايد مع تجار الجملة.. وراجت تجارته واستطاع أن يستخدم عدداً من الباعة المتجولين ليزودهم ببعض صناديق الفاكهة لبيعها لحسابه..

وذات يوم .. جاءت إلى سوق الفاكهة شحنة كبيرة من صناديق التفاح محملة على سيارة ضخمة.. ووجدها «شعبان» فرصة طيبة للمزايدة على شرائها.. ولكن الرجل المكلف ببيع هذه الشحنة لم يفرغها كالعادة من السيارة حتى ضاق شيخ الدلالين به ذرعاً وبدأ بعض التجار ينصرف عنها إلى غيرها من الشحنات حتى لا يضيع الوقت. أما «شعبان» الذكي.. فقد راقت في عينه هذه البضاعة وتسمر بجانبها وزاده تصميماً وعزماً ما رآه على محيا ذلك الرجل من اضطراب إذ راح طيلة الوقت يبحث بعينين زائغتين بين التجار متفرساً فاحصاً.. وعجب «شعبان» من أمر هذا الرجل الذي تأخر بعض الوقت عن تسليم البضاعة لأحد الدلالين رغم ما في ذلك من مضرّة لتجارته واضطراره لبيعها بثمن بخس زهيد.

وأخذ «شعبان» يطيل التفكير.. يفحص البضاعة بعينيه و يلقي نظرة على الرجل الغريب الأطوار وأدرك أن في الأمر سراً.. فإما أن تكون هذه البضاعة مهربة أو تالفة، وإما أنه ينتظر تاجراً مزاحماً لبيعها بثمن مرتفع.. وتحسّس البضاعة كرجل ذي خبرة بعمله فوجد أن البضاعة من النوع الجيّد الممتاز.. وصمّم على شرائها مهما كلفه ذلك من ثمن ليكشف ما تحمله هذه الصناديق من ألغاز وأحاج ادركها عقله النيّر وذكاؤه المتوقّد.

وبزغ الفجر.. وبدأت الشمس تؤذن بالإشراق.. والرجل لا يحرك ساكناً.. واشتد قلق «شعبان» خوفاً من أن تفوته هذه البضاعة فيعود خاسراً دون ربح بعد أن بيعت جميع الأصناف الجيدة من الفواكه. واقترب من الرجل الغامض وقال في سذاجة مصطنعة: ألم يحن الوقت بعد ياصاحبي لإنزال بضاعتك وبيعها..؟ وأحسّ

الرجل أنه أمام شخص ساذج غبي، ولم يدر أنه ثعلب ماكر أتقن دوره التمثيلي وأجاده. ووجدها فرصة طيبة ليتيح المجال لهذا التاجر الغبيّ أن يشتري هذه البضاعة قبل أن يفتضح أمره أملاً في انتظار الرجل الذي يريده.. ووجد أنه بالإمكان أن يشتريها من هذا التاجر فيما بعد مقابل إعطائه بعض الكسب المادي. وأجاب في هدوء: وهل يعقل ألاّ أبيع البضاعة؟! وأسرع ينادي شيخ الدلالين لإنزال الحمولة وفتح النداء العلني.. ولم يجد «شعبان» من ينافسه بعد أن انفض عقد تجار الجملة ورست عليه البضاعة، وحملها لإحدى مخازن متجره مزهواً فخوراً.. ولم يمض وقت قصير إلا وأقبل اثنان إلى متجره أحدهما الرجل الغامض و يبدو عليهما الاهتمام والقلق، وعرضا عليه شراء البضاعة كلها بأرباح معقولة ولكن «شعبان» في هدوء بعد أن أدرك ما تحمله بضاعة اليوم من كنوز مطمورة وقال:

ما أشد غبائي وجهلي.. إنني أشعر بالحسرة لتفريطي في هذه البضاعة وتسرّعي في بيعها.. لقد تصرفت بها للأسف وابتاعها مني بعض الزملاء من التجار والعملاء قبل وصولكما بدقائق.. ولو كنت أدرك حرصكما الكبير عليها لأجلت بيعها.. واحسرتاه «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»!!

آه يا صاحبي أما كان بوسعك حين رست عليّ البضاعة أن ترشدني مادمت تدرك قيمة هذه البضاعة وأهميتها بالنسبة لصديقك؟!. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد أفسدت عليّ ربحاً وكسباً ما كنت أحلم بهما أبداً طيلة عمري.. إنه خطؤك على أيّة حال.. وحملق الرجلان في وجهه وأصابهما الذهول والحيرة وأحسّا أن هذا التاجر إما غبي أحمق أبله وإما داهية ماكر.. وحاولا أن يعرفا أسماء التجار والعملاء الذين أسعدهم الحظ بشراء هذه البضاعة.. وتقمّص «شعبان» من جديد دور البله والسذاجة وراح يسرد على أسماعهما أسماء وهمية لتجار وعملاء لا وجود لهم في الحياة، حتى لا يعرض نفسه لانتقام الرجلين منه وراحا في اهتمام يسجلان الأسماء.. وانطلقا على عجل يجدّان في البحث عمّن أرشدهما إليهم. بينما أسرع «شعبان» إلى مخزن البضاعة دون أن يشعر به أحد ليكتشف السرّ الغامض الذي تحمله هذه البضاعة..

وأخذ في حذر يفتح الصناديق واحدًا واحداً.. باحثاً مدققاً.. وأخذه العجب إذ لم يجد بالصناديق سوى التفاح.. ترى هل يعقل أن يدفع الرجلان ذلك الربح الخيالي في صناديق هذه الفاكهة.. لا.. لا.. هذا غير معقول؟! فإن الاهتمام والحيرة والقلق على محيا الرجلين يكمن وراءها سر.. وأمسك في يده تفاحة وأعجبه منظرها ورائحتها الجميلة.. فأخذ يقضمها بأسنانه الحادة وأحس بجسم صلب صغير يصطدم بأسنانه.. فأخرجها.. واتّسعت حدقتا عينيه.. وراح يدقق في هذه اللؤلؤة الفاخرة.. وأصابته الدهشة.. ياله من كنز مطمور تحمله هذه البضاعة.. إنها ثروة لاتقدر بثمن هبطت عليه من السماء.. ليت شعري.. هل كل تفاحة تحوي مثل هذه اللؤلؤة النادرة..؟

إنها ثروة كبرى طائلة ترفع أسهمي في الميزان التجاري وتجعلني في عداد طبقة الأثرياء الكبار.. وبدأ «شعبان» يسرع في حرص بالغ يخرج حبّات اللؤلؤ النادرة ويجمعها و يضعها في صندوق حديدي.. كان لايأبه بالعرق الذي كان يتصبّب منه.. والجهد المضني الذي يبذله في سبيل استخراج اللؤلؤ الذي وضع بعناية بالغة محكمة..

وأمضى وقتاً طويلاً لم يحسّ فيه بالجوع المضني أو العطش القاتل وهو يزاول هذا العمل حتى أفرغ كل مافي الصناديق. وهنا أحسّ براحة عميقة وشعور بالغبطة والسعادة وأراد أن يحمل صندوق اللؤلؤ ليودعه في مكان أمين.. حتى لا تمتد إليه يد غريبة فتعبث به.. ولكنه في الربع الأخير من الليل!!. وخشي إن هو غادر هذا المكان فقد يقبض عليه الحارس الليلي المناوب ظناً منه أنه لص.. ومن يدري ربما كان الرجل الغامض وزميله يتربصان به شراً.. ورأى من الخير له أن ينتظر حتى بزوغ الفجر.. ثم خطرت له فكرة دفن الصندوق داخل المخزن ريثما يدبر طريقة للتصرف في بيعه..

وراقت له هذه الفكرة .. فاستحسنها.. وبدأ يحفر الأرض في عزم وقوة وخبأ الصندوق داخل حفرة كبيرة في إحدى أركان المخزن بعد أن احتفظ ببعض اللؤلؤ في جيبه وساوى الأرض كما كانت حتى لا يفطن إلى مكانه أحد.. ثم غلبه النعاس. فاسترخى وتمدّد على الصناديق واستغرق في نوم عميق..

وفي الصباح الباكر.. خرج من مخزنه متظاهراً يحمل صندوقاً من الفاكهة.. وعاد إلى بيته ولم يفكر في الذهاب إلى محله كعادته خشية أن يعثر عليه الرجلان.. واستأجر منزلاً آخر في حي بعيد عن سكنه.. وبدأ يتصرف في بيع اللؤلؤ واحدة تلو الأخرى.. واتفق مع أحد تجار المجوهرات ذائعي الصيت والشهرة.. على بيع قسم كبير من هذا اللؤلؤ بمبالغ كبيرة..

وبدأ يمارس التجارة على أوسع نطاق.. وزاده الله بسطة وسعة في الرزق... وامتدت شهرته إلى الآفاق بما كان يملك في حوزته من أراض وعمارات شاهقة ومحلات تجارية لا حصر لها.. حتى أصبح اسم «شعبان الأمير» على كل لسان.. فهو الغني الواسع الثراء وحاتم زمانه الذي ينفق الأموال بلا حساب لكل من استجدى فضله وإحسانه، أو أطنب في مديحه، أو تغنى بكرمه وجاهه.. وكان يطرب للمديح ويجذل بسخاء في هذه السبل ليداري عقدة النقص التي كان يشعر بها كلما تذكر ماضي حياته الأسود المليء بالمآسي والفواجع والكوارث والمحن.. ورغم أنه كان يملك قصراً منيفاً شامخ البنيان يعج بالمستخدمين إلا أنه كان يؤثر غرفة نومه المتواضعة التي حرص أن تكون بجانب مكتبه الذي يزاول فيه تجارته ليأوي إليها للراحة والاستجمام كلما أحس بتعب أو نصب..

ومضت السنون وتتابعت، وثروته في نمو مستمر حتى أصبح من الصعب عليه أن يحصيها وذات يوم وقف ببابه متسول في حالة يرثى لها من الفقر والحرمان.. وحاول مدير مكتبه أن ينفحه ببعض المال ولكن الرجل المتسوّل رفض في إباء وشمم ما قدم إليه.. وأصر على مقابلة الوجيه المعروف «شعبان الأمير» وحاول مدير مكتبه أن يصرفه.. ولكن الرجل المتسوّل أبى إلا أن تتاح الفرصة لمقابلته..

وأمام إلحاحه وإصراره سمح له بالدخول.. ووقف الرجل المتسوّل محملقاً مشدوهاً وهو يرى فكهاني الأمس قد غدا ذا صولة وحولة وفي بحبوحة من العيش والغنى. وتفرس «شعبان» في هذا المتسوّل العنيد يا إلهي.. إن صورة هذا الرجل ليست بغريبة علي.. ليت شعري.. أتراه أحد رفقاء الصبا ممن شاركوني آلام الحياة

وقسوتها؟!! وتقدم الرجل المسكين منه خطوة علّه يعرف شخصيته.. وسحب «شعبان» درج مكتبه وألقى إليه برزمة مالية.. ولكن الرجل أعادها إليه وقال: لا أظن أني بحاجة لهذا المال ياسيدي العزيز..؟ أتذكر ذلك اليوم الذي اشتريت فيه بضاعة التفاح..؟ وجئت إليك مع صديقي لأبتاعه منك!! وتظاهرت بالغباء والسذاجة.. وحاولت تضليلنا بأسماء وهمية أعجزنا البحث عن شخصيات أصحابها!!

إنني ذلك الرجل يا سيدي.. ولقد كلّت قدماي في البحث عنك في كل مكان.. ولكنك اختفيت ردحاً من الزمن حتى إذا اطمأنت نفسك، عدت إلى مسرح الحياة.. آه!! ما أغباني ياصديقي يوم أن وضعت كل ما أملكه لأتاجر في اللؤلؤ بطريقة التهريب.. ولو سلكت جادة الطريق المستقيم.. لكنت الآن في هذا المركز الذي تنعم به.. ياله من جزاء رادع ودرس قاس أجتر آلامه طيلة هذه السنين، حتى غدوت طريداً في هذه الحياة أعاني مرارة الجوع والحرمان..

أعرفت من أكون الآن يا سيد شعبان..؟ ولم يستطيع أن يكمل حديثه فقد غلبته الدموع الغزيرة ثم لم يلبث أن وقع مغشياً عليه..

وعصفت الذكريات بشعبان.. واستيقظ فيه الضمير الحي.. وأسرع نحو الرجل المسكين لإسعافه، حتى إذا أفاق من صدمته القاسية راح يواسيه آلامه وجراحه، ثم نقده مبلغاً كبيراً من المال يكفيه لإقامة محل تجاري.. و بنظرات ملؤها الشكر والتقدير والوفاء بالجميل.. ودّع الرجل المسكين الثري «شعبان» ومضى في درب الكفاح الطويل ليواصل من جديد حياة العمل الشريف..


الأمل الضائع



الأمل الضائع

ولدت «راوية» في بادية الشام .. وجاءت إلى هذا البلد في موسم الحج مع أسرتها منذ سنوات طويلة وهي لم تزل في سن الرضاعة واستقر بأسرتها المقام في إحدى القرى النائية حيث وجد والدها العمل كفلاح في مزرعة واسعة يملكها أحد الأثرياء.

نشأت «راوية» في هذه القرية وعاشت نفس الحياة التي يعيشها أهل هذه القرية ترعى الأغنام التي يملكها أبوها..

وذات يوم وقفت على عتبة باب الكوخ الذي تسكنه ترقب الأفق البعيد وكأنها تبحث بين طيّاته عن مستقبلها الغامض الذي ينتظرها في هذه القرية الصغيرة التي قدر لها الحياة فيها.. وأحسّت بالألم يعصر قلبها وهي تنظر إلى هذه الأكواخ المبنية باللبن في غير ترتيب أو تنسيق وقد تناثر من حولها روث الأغنام والإبل.. وتساءلت..!

ترى هل كتب عليّ أن أعيش أبد الدهر في هذه القرية النائية.. أرعى هذا القطيع من الماعز.. أنصت إلى ثغاء الشياه ورغاء الإبل وأعيش في كنف والد معدم فقير.. وأم كادحة تعمل طيلة يومها لتساعد أبي على توفير الغذاء والكساء..؟

وأطرقت تفكر مليًّا في الأمر، وتواردت عليها الخواطر وزيّن لها عقلها الصغير أن تهجر القرية إلى المدينة حيث الحياة الصاخبة والعيش الرغيد.. إنها وأسرتها يستطيعون أن يجدوا مجالاً طيباً للعمل. واختمرت الفكرة في رأسها.. فأسرعت إلى والديها تحثهم على النزوح إلى المدينة وتلحّ في الرجاء.. ولم تفلح توسلاتها ودفاعها في إقناع والديها وسكتت على مضض..

وتمر الأيام في بطء شديد قاتل.. وراو ية في صراع نفسي. إنها تمقت هذه الحياة التي تعيش فيها ولكنها لاتستطيع أن تعبر عن مكنون فؤادها.. لاأحد يعير رأيها أي احترام.. إنها في نظرهم لاتزال صغيرة غرّة ساذجة وهي تخشى أن تمضي بها الأيام وتكبر و ينمو عودها ولا يتحقق لها حلمها الجميل. وتجد نفسها تزف إلى واحد من شباب هذه القر ية رغماً عنها لتعيش نفس الحياة الرتيبة..

وأحسّت بموجة من الحزن تغمرها واسودّت الدنيا أمام عينيها.. ورأت من الخير أن تدفن آلامها وأحزانها في صدرها بعد أن يئست من تحقيق رغبتها..

و يتدخل القدر ليمد يده إلى «راو ية» الحائرة الحز ينة ليحقق لها الحلم السعيد.. فقد جاء صاحب المزرعة الضخمة التي يعمل فيها والدها تصحبه زوجته ليقضيا أياماً في هذه القر ية يتفقد فيها أحوال مزرعته. وطلب الوالد من ابنته «راو ية» أن تقوم بشؤون خدمتها أثناء بقائهما. وأعجبت السيدة «نعيمة» زوجة الرجل الثري بالفتاة «راو ية» وما تتميز به من حدة في الذكاء وأصالة في الطبع وسرعة في البديهة. وأحسّت بعاطفة وحنان تشدّها نحو الفتاة. إنها ستكون خير أنيس لها بعد أن حرمت نعمة الخلف. فاستأذنت من الشيخ «رفيق» والد راو ية أن يسمح لها بأن تصطحب ابنته معها لتعيش في المدينة كواحدة من أفراد أسرتها وخاصة وأن خالتها مخدومتها مر يضة ونقدته مبلغاً من المال لتضمن موافقته و وجدها الأب فرصة طيبة بالنسبة لمستقبل ابنته وضمان حياة عمله في هذه المزرعة فوافق على الفور بعد أن شكر السيدة «نعيمة» على أريحيتها وكريم أدبها ولطفها. وأسرع إلى ابنته يحمل إليها النبأ السّار.

وشد الجميع رحالهم إلى المدينة.. الأب يحلم بالمال المدخر إذا لَقِيَت الخالة بارئها.. والأم قلقة على مرض أختها الحنون وتحترق شوقاً ولهفة إليها..

والابنة تنشد الآمال الكبار التي تنتظرها في المدينة. وفي القصر المنيف استقبلتهم الخالة بترحاب بالغ بعد أن أنعم الله عليها بالشفاء العاجل.. وكانت خيبة أمل للأب الطامع في ثروتها ونشوة وفرحاً بالنسبة لراو ية وأمها.. ومكث الجميع في ضيافتها أسبوعاً وأعجبت الخالة «براو ية» وما بذلته من نشاط وجهد في مساعدتها أثناء

مقامها بالبيت. فاستأذنت والديها عند رحيلهما بأن تبقى «راوية» معها لتشاطرها الحياة في هذا القصر الذي لايعيش فيه إلا رجل ثري جاوز الخمسين من عمره وزوجته في مثل سنه.. وحتى تضمن موافقة الأب وعدم معارضته دسّت في يده مبلغاً كبيراً من المال فرح به الشيخ العجوز. ولم ينس وهو يودّع ابنته قبل رحيله وزوجته أن يوصيها بإرسال ماتجود به عليها الأسرة. ووعدته «راوية» بأنها لن تتوانى في إرسال كل ما يخصها إليهما. إنه لايهمها المال بعد أن تحقق لها أعز مطلبها في هذه الحياة..

وفي كنف ورعاية هذه الأسرة عاشت الفتاة معززة مكرمة،ووجدت الحب الكبير والعطف والحنان من سيدة القصر التي رعتها كابنة لها بعد أن حرمت من نعمة الخلف،.. وتهيأت لها كل أسباب الحياة الكريمة.. فلم تبخل عليها ربّة هذا البيت بأي شيء.. اشترت لها أحسن الملابس وأعفتها من خدمة البيت وألحقتها بإحدى المدارس لتتعلم وتنال قدراً من العلم والثقافة بعد أن رأت ما تميزت به الفتاة من ذكاء وطموح.

وبدأت الفتاة القروية الهزيلة تكبر بسرعة.. وداخلها الغرور والكبرياء يوماً وهي تقف أمام المرآة.. وراحت تخاطب نفسها قائلة:

هل أنا راوية القروية ...؟ ما أبشع هذا الإسم.. إنه ليذكرني دائماً بما كنت فيه من ضنك العيش وحياة البداوة.. وددت لو كان إسمي نهلة.. هيام.. فاتن.. فهذه الأسماء ذات جرس موسيقي بديع تتلاءم وما أنا عليه من روعة الجمال والفتنة. فهذا الشعر الأسود الفاحم الجميل المخضب بأفخر روائح باريس كان بالأمس يكسوه التراب ويعشش فيه القمل.. وهذا المحيا الفاتن الذي تكسوه نضرة الشباب وحيويته وقد كان من قبل أسمر داكناً قد أحرقته حرارة شمس الصحراء.. وهذه القامة الممشوقة الساحرة التي أظهرت جمالها موديلات هوليود وباريس كانت تخفيها الأثواب الرثّة البالية الفضفاضة.. وهاتان الشّفتان الدافئتان الورديتان قد كانتا ضامرتين تعلوهما الشقوق..

ومن فرط إعجابها وتيهها بنفسها.. راحت تستعرض نفسها أمام المرآة وكأنها «مانيكان» تستعرض أحدث الموديلات لترى أي رداء يمكن أن تبدو به أكثر فتنة وجمالاً.. وفي غمرة هذا الإعجاب والتيه بنفسها.. جاءها صوت خالتها مدوياً باسمها في فزع..

الخالة : راوية .. راوية .. يا راوية .. أسرعي بالحضور حالاً.

راوية : (تخاطب نفسها) يا إلهي.. ماذا جرى لخالتي إن صوتها غريب ممزوج بالخوف.

الخالة : تنادي : يا راوية.. راوية.. أسرعي يا ابنتي..

راوية : نعم يا خالة .. هأنذا قادمة إليك وماذا بك يا خالة.. لِمَ البكاء والعويل.. أرجوك أن تتكلّمي..

الخالة : سيدتي «نعيمة» يا راوية.. إنها.. وتبكي..
ثم تقول: لقد ماتت فجأة.. وتبكي..

راوية : مستحيل .. مستحيل .. سيدتي «نعيمة» بخير.. لقد تركتها منذ ساعة وهي في أحسن حال.. ثم تبكي..

الخالة : لقد أخبرني سيدي «شفيق» أنها ماتت بالسكتة القلبية.. وتبكي.. ثم تقول: مسكينة أنت ياسيدتي «نعيمة»، كم كنت غاية في الطّيبة والرقّة اللهم أسكنها فسيح جنّاتك.. وتبكي..

راوية : في صوت ممزوج بالبكاء.. حقًّا إنها أحسن إنسانة في الوجود.. لم تشعرني يوماً بأني خادمتها .. دائماً تدعوني بابنتها.. مستحيل أن تكون أمي «نعيمة» قد ماتت.. مستحيل.. مستحيل.. وتبكي في هستيريا..

ويسود جو البيت موجة من الحزن.. فقد كانت السيدة نعيمة على خلق رفيع وأدب وتواضع جم. الكل يوليها احترامه وتقديره لمعاملتها الكريمة لهم وعطفها وحنانها عليهم. وكان أشد الناس حزناً عليها خالة راوية.. لم يهنأ لها نوم أو يلذ لها طعام أياماً بعد وفاة سيدتها وولي نعمتها.. ولم تلبث أن لحقت بها عند بارئها بعد أسابيع من

موتها. وغمر البيت من جديد سحابة حزن. وحزنت «راو ية» كثيراً على وفاة خالتها التي كانت السبب فيما وصلت إليه من سعادة وراحة. ورأت أن من الحكمة ألاّ يصل نبأ وفاة الخالة إلى أسرتها خوفاً من أن يصرّ والدها على العودة إلى حياة القر ية التي تكرهها.. ورأت من الخير ألاّ تواصل دراستها حتى تسهر على راحة سيدها وهو آخر من تبقّى من شجرة العائلة التي كانت تحوطها بكل رعايتها وعنايتها. ولم تنس أن تغدق على والديها بالمال الذي ورثته عن خالتها لتضمن عدم ملاحقته لها في المدينة.

ومضت الأيام وتتابعت السنون و«راو ية» كل يوم تنمو وتترعرع و يتفتح جمالها كما تتفتح الزهرة تحت حرارة الشمس. وأصبحت امرأة بكل ما في هذه الكلمة من معنى و بدأ صاحب القصر الذي يقترب إلى حافة القبر بخطى واسعة ينظر إليها في إعجاب و بعين نهمة. وأخذ يشعر بجمال الحياة وحيو يتها كلما وقعت عيناه على هذا الجمال الساحر الذي يشاركه الحياة في بيت واحد. و بدأ يعتني بهندامه وصحته.. لم يترك طبيباً نطاسيًّا ماهراً إلا واستشاره وطلب نصحه في علاج يهبه الشباب والحيو ية.. وصبغ شعره الأبيض ليبعد شبح الشيخوخة عنه. و بدأ يولي كل اهتمامه براو ية.. و وفّر لها كل أسباب الراحة.. فالقصر المنيف أصبح كخلية نحل يعمل فيه أكثر من خادم وطاه ومر بية، الكل يسهر على راحتها.. ما عليها إلا أن تأمر والكل مطيع منفذ لرغباتها.. لا تطلب شيئاً مهما غلا ثمنه إلا وأحضره لها في الحال. وإذا ألمّت بها وعكة بسيطة حضر الطبيب على الفور لعلاجها. وأمعنت راو ية في دلالها.. وهي ترى نظرات الإعجاب والحب تطاردها من سيد القصر المتصابي..

وراحت تتعمّد بشتى الطرق أن تبرز مفاتنها أمامه حتى تلهب أعصابه الثائرة ليكون أسير حبها وحدها، ولا يفكر في إنسانة أخرى تشاركها هذه الثروة الطائلة. إنها تر يد أن يكون هذا العجوز المتهالك صر يع حبّها لتتم لها الفرصة الكبرى بالزواج حتى تصبح الوارثة الشرعية لهذا السلطان والجاه بعد وفاته..

وفي أصيل ذات يوم.. كان الهرم يتناول الشاي في حديقته الجميلة ذات الأشجار الباسقة والورود المتفتحة ذات الرائحة العبقة.. و وجدت راو ية الفرصة سانحة لتحقق

أعز أمنية لها في هذه الحياة فارتدت ثوباً أنيقاً ووقفت بجانب الزهور تداعبها .. ومن خلال النظّارة الطبّية السميكة .. راح الكهل المتصابي يتابع هذه التحفة الإنسانية الساحرة .. ففتن بها أكثر من أي وقت مضى وأحسّ أنه يتعذب و يتقلب على نار الغضى وأخذ يطيل التفكير ليبحث له عن طريقة يبوح بها بحبه لها ، ورغبته في الاقتران بها ولكنه يخشى أن تصدمه برفض طلبه . وأدركت الفتاة الذكيّة حيرته وقلقه .. ووجدت أن اللحظة جميلة متفتحة .. وشعر العجوز بارتباك وهي تقبل نحوه .. ولكنه سرعان ما تجمعت لديه الشجاعة التّامة ليقول لها :

شفيق : أهلاً .. أهلاً .. « راو ية » الغالية .

راو ية : سيدي العزيز ، معذرة فإني لم أحس بوجودك هنا لانشغالي بتنسيق حوض الزهور .. انظر إلى هذه الورود الجميلة .. إنها من حوض زهوري وتربية يدي ..

شفيق : (في تعجب) يا سلام !! . إنها وردة رائعة تماماً يا راو ية !!

راو ية : (تضحك في غنج ودلال) .. سيدي .. إنك تخجل تواضعي .

شفيق : أرجوك يا راو ية ، لا داعي لأن تقولي « سيدي » .. شفيق فقط .. و يضحك ضحكة بلهاء ..

راو ية : (تضحك) ثم تقول يا سلام !! كم أنت إنسان عظيم لكم أنا مدينة لك بحياتي ..

شفيق : (يضحك) ثم يقول : العفو يا « راو ية » .. لقد ملأت بيتنا حياة وغبطة ولولا وجودك بجانبي لأصبحت في دنيا الهالكين ..

راو ية : أوه .. لا تبالغ في إطرائي ومدحي .. فما أنا إلا خادمة لك ..

شفيق : (يقاطعها) .. أستغفر الله .. رجوتك ألا تكرّري هذه الكلمة يا راو ية أنت .!! و يتلعثم .. ثم يتابع حديثه : أنت أعز إنسانة لي في هذه الحياة .. أما ترين .. لقد جددت شبابي وحيو يتي حتى أصبحت إنساناً آخر .

راو ية : (تضحك) ثم تقول : بل أنت مثال للحيو ية والنشاط .

شفيق : إيه .. إن أعظم ما أتمناه في حياتي يا راو ية أن أراك في كامل السعادة

والرفاهية..

راويــة : إنني في غاية السعادة طالما أنت بجانبي ترعاني وتحميني..

شـفـيـق : لـقـد أنـسـانـي حـديـثـك الشجن فكرة جالت بخاطري.. ولكن لا داعي الآن.. إنها كما يبدولي سخيفة.. سخيفة..

راويــة : أرجـوك .. أرجـوك أن تـطـلـعـنـي على هـذه الـفـكرة وتأكد أنها لن تكون سخيفة.. هيه.. هأنذا منصتة إليك.. تفضل..

شـفـيـق : (في صـوت يـبـدو فـيـه الارتباك والقلق) إنني أشعر بالوحدة يا راو ية منذ موت المرحومة «نعيمة».. وقد فكرت في الزواج..! فماذا تر ين.؟

راويــة : (في انـزعـاج) زواج.. لا.. لا.. مـسـتـحـيل.. مستحيل. إذا فكرت في الزواج فلن أبقى هنا في البيت ثانية واحدة.. وتبكي..

شـفـيـق : (يـضـحـك) كـم أنت ساذجة يا راو ية وتتعجلين الأمور إنك لم تفهمي ما أقـصـده.. لـقد كان الأجدر بك أن تسألي أولاً مَنِ الزوجة التي اخترتها؟ و بعد ذلك تصدر ين حكمك.. أليس كذلك؟!

راويــة : (بـعـد أن تمسح دموعها) هيه.. حسناً.. ومن هذه الإنسانة السعيدة التي اخترتها لتكون شر يكة حياتك ياترى..؟ هيه.. تكلم.

شـفـيـق : (في تلعثم) أنت يا «راو ية»..

راويــة : (في دهشة وفرح) هيه.. أنا.. أنا.. هل هذا معقول.. أكاد لا أصدق..

شـفـيـق : بل صدقي يا «راو ية».. وأر يد أن أسمع جوابك.. هيه ما رأيك..؟

راويــة : (تضحك ضحكة خفيفة) ثم تقول في تلعثم: أنا.. لا أدري.. لا أدري.. الأمر بيدك ياسيدي (وتضحك ضحكة خفيفة تدل على قبولها بالزواج)..

و يقرأ العجوز المتصابي في عيني «راو ية» الاستجابة الكاملة.. وما درى أنها الفرصة الكبرى التي كانت تتمناها وتحلم بها منذ أمد طو يل.. و يسرع إلى إتمام مراسيم الزواج في نشوة بالغة وهو لا يصدق أن الفتاة قد استجابت لطلبه بهذه السرعة الفائقة.. فقد كان يتوقع أن تثور في وجهه بمجرد أن يصارحها بالزواج.. أن تهجره.. أن تغلظ له في القول.. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث.

وتم الزواج بهذه الفتاة التي لاتعدو ابنة من بناته.. و بدأت تلعب بفكره الهواجس وراح يخاطب نفسه:

ترى ما الذي حدا بها إلى الزواج بي وهي تدرك أني كهل قد جاوز الستين من عمره..؟! أهو طمع في ثروتي الضخمة التي أملكها..؟!

أم رد للجميل الذي طوقت به عنقها..؟!

أم المعاملة الكريمة والحب والحنان الذي أغدقته عليها..؟!

أم تراها أعجبت بي بعد أن رأت ما أنا فيه من نشاط وحيوية..؟

لا .. لا .. إن فتاة كـ«راوية» لا يمكن أن تطمع في ثروتي بعد أن وهبت لها هذا القصر المنيف قبل زواجي بها.. إنه الإعجاب بي دون شك.. ثم الحب والحنان الذي أغدقته عليها منذ مقامها بهذا البيت.. ولماذا تعارض في الزواج وأنا الرجل الوحيد الذي عاشرته وعرفته عن كثب؟! فتقاليد أسرتنا لم تكن تسمح بالاختلاط كما هي الحال في الخارج..

و بينما العجوز شارد في تأملاته.. سابح في أفكاره وخيالاته.. تقبل عليه زوجته «راوية» وما أن يبصرها حتى يهبّ واقفاً لاستقبالها و ينسى ما كان يفكر فيه، ليهنأ بالحب الجديد الطارىء والسعادة المنتظرة.. ولكن هل تحقق للعجوز المتصابي، والفتاة المغرورة السعادة التي كان يحلم بها كل منهما..؟!

بعد مرور شهر على هذا الزواج.. بدأت جذوة الحب المشتعلة تخبو.. والحلم الجميل يتحطّم على صخرة الواقع المرير.. فكل منهما شعر بفداحة ما ارتكبه من خطأ جسيم.. فالزوج الكهل أحسّ بأن ما كان يشعر به من نشاط أو حيوية ما هي إلا أوهام جسمها له خياله الكاذب.. إنه زوج غير كفء لفتاة غضّة جميلة في سن واحدة من أحفاده لو جاد الله عليه بالخلف..

والفتاة الطامعة في المجد والثروة.. أدركت أن السعادة والحب لا يمكن أن يحققها المال الوفير والثروة الطائلة.. وأحسّت بالضياع.. ضياع شبابها وجمالها وعضّت على

نواجذها ندماً وخيبة.. ولكن ماذا تفيدها الحسرة والندم.. وهي التي سعت لهذا الزواج عن رغبة وشوق أملاً في تحقيق حلمها الكبير.. فهل ترضى بالعيش في كنف كهل لاتدري متى يحين أجله..؟

أم تراها تثور وتحطم هذه الحياة الخادعة..؟ وماذا ستكون النتيجة..؟ ترى هل يوافق الزوج على طلاقها؟ وعلى فرض أنه أخلى سبيلها.. فهل يتركها ترتع في هذا النعيم وهذه الحياة الجميلة التي ألفتها..؟ أم يلقي بها في الشارع بعد أن يجردها من كل شيء انتقاماً منها لتعود إلى حياة البؤس والشقاء..

أسئلة تزاحمت في مخيلتها ولا تجد جواباً لها.. لا.. لا لن أعود إلى حياتي الأولى.. إنه الشقاء.. سأبقى بجانب هذا الكهل حتى يلقى ربه لن أترك هذه الثروة الطائلة تفلت من يدي.. سأرثها إن عاجلاً أو آجلاً..

وأقنعت راوية نفسها بالعيش في ظل زوجها الكهل.. إنها لاتزال تحلم بالمجد المقبل والثروة المنتظرة.. ولكن الفتاة لم تستطع أن تتحمل الحياة مع هذا الزوج بعد أن مد الله في عمره وبدأت المشاحنات والبغضاء على أشدها بينهما ولم يعد يتحمل أحدهما الآخر..

فالزوج الكهل بدأ يشعر في قرارة نفسه أن زوجته لاتكنّ له أي حب أو عطف أو حنان كسابق عهده بها وزين له شيطانه شبح الخيانة الزوجية.. فأخذ يضيّق عليها كل السبل. فإن رآها يوماً في رداء جميل مزّقه وألقى به على الأرض وإن شاهدها تقف بالنافذة تستنشق بعض الهواء خيّل إليه أنها تخونه مع شخص آخر، وأسرع إلى النافذة يحكم غلقها. وإن سمعها تحادث صديقة لها بالتلفون أسرع إلى الحجرة المجاورة ليستمع إلى المحادثة ليتأكد بنفسه من يحادثها..

وإن ذهب إلى المكتب التجاري أحكم غلق الباب بالمفتاح حتى لاتفكر في الهرب لقد أصاب الكهل جنون الغيرة.. وحاولت الفتاة أن تتذرع بالصبر، وتندب حظها العاثر وتسري عن نفسها بالبكاء.. دون جدوى ولم تعد أعصاب الفتاة تتحمل

هذه القسوة الجنونية.. فانفجرت يوماً وثارت في وجهه إثر مشادّة كلامية بينهما.. عزّ على الكهل أن يرى ربيبته.. وهو ولي نعمتها.. تتطاول عليه بكلام مقذع فأمسك بتلابيبها وأشبعها ضرباً ولكماً ورفساً بلا شعور.. و دون وعي أمسكت الفتاة بزجاجة عطر فخمة وهوت بها على رأسه.. فخرّ الزوج المتهالك صريعاً.. وراح الدم ينزف من رأسه.. وأحسّت الفتاة بالجرم الكبير الذي ارتكبته عن غير قصد.. فأصابتها نوبة جنونية حينما رأت الدم يسيل بغزارة.. وهرع الخدم على صراخها وعويلها وهالهم ما رأوا.. سيد القصر مسجّى على الأرض لا حراك له.. و«راوية» بجانبه تتحسّس بيد مرتعشة خائفة من الدماء الساخنة التي كانت تنزف منه..

وفي مستشفى الأمراض العقلية.. كانت الرحلة الأخيرة والأمل الضائع للفتاة القروية «راوية» الطامعة في المجد والثروة والجاه والسلطان..




عندما تصفو القلوب



عندما تصفو القلوب

مات والده وهو طفل صغير لما يتجاوز السادسة من عمره،كان موت أبيه كالحلم والخيال لايذكر شيئاً عنه، ولم تشأ أمه الحنون وهي المرأة الشابة التي تتمتع بقسط كبير من الجمال أن تتزوج من تقدم لخطبتها ، فإن حبها لزوجها الذي اختطفته يد المنيّة وهو في ر يعان شبابه لايزال يعيش في قلبها الكبير رغم أنه أصبح تحت الثّرى ومحال أن يعود إلى حياتها من جديد.. ولكنه حي في قلبها وكل جوارحها تراه في ثمرتي حبهما «سمير» و«نوال» . وقررت أن تضحي بالغالي والرخيص من أجل أن تهيّء لطفليها حياة كريمة هانئة حتى تعوضهما حنان الأب وعطفه.. ولكن راتب والدها الضئيل لا يكفي لسدّ حاجة الأسرة كلها،وزوجها الراحل لم يترك لهم سوى منزله الصغير،ودخله البسيط من الايجار لا يكفي لإعاشتهم،وهي لاتر يد أن ترهق والدها بالديون وصممت أن تعمل حائكة ملابس لأنها المهنة التي تعلّمتها في حياتها و بذلت مجهوداً كبيراً من أجل الحصول على ملابس لحياكتها من جيرانها الذين عطفوا عليها وأكبروا لها تضحيتها من أجل أبنائها. واستطاعت بكفاحها أن تكتسب شهرة طيبة بين سيدات الحي حتى أصبحت حائكة الحي المشهورة، وأنعم الله عليها بالرزق الواسع والخير الوفير، وكانت كريمة النفس فلم تبخل على والديها بشيء من دخلها،فقد كانت تؤمن بالأثر القائل: «أنت ومالك لأبيك» أما طفلاها فكانا كل شيء في حياتها. كل ما تدّخره من مال تبذله من أجلهما.. لم تبخل عليهما بأفخر الملابس.. فـ«سمير» كان يبدو في أحسن حلّة سواء في البيت أو المدرسة أو الشارع.. و«نوال» كانت ترتدي أجمل ما أنتجته مصانع فرنسا. والطفلان سعيدان في كنف أمهما بيد أن «سمير» كان أكثر تعلقاً بأمه لحبها وعطفها عليه،وكنتيجة لهذا الإفراط في الحب أصبح لا يسير خطوة دون أن يستشيرها و يأخذ رأيها حتى في أبسط أمور الحياة.

لقد أفقده دلال الأم وحنانها المفرط كل شيء.. فأمه بالنسبة له عقله وفكره تسيّره كيفما شاءت. ونما «سمير» وكبر وأصبح فتى يافعاً،ولكنه كان دائم التعثر في دراسته، وحرصت والدته أن تهيّء له مدرسين خصوصيين لتدريسه ولكنه لم يفلح ووقف عند المرحلة الإعدادية،ولم يستطع أن يتابع دراسته بعد أن فشل في امتحان الإعدادية ثلاث سنوات فانقطع عن الدراسة ليعيش بجوار أمه متعطلاً يعتمد على ما تقدمه له الأم من مصروف لجيبه الخاص. ولكن حياة البطالة لم تعجبه وهو يرى زملاءه في الدراسة يتقدمون في دراستهم،و يبعثون إلى الخارج لمواصلة تعليمهم الجامعي وخجل من نفسه بعد أن رأى نظرات الهزء والسخرية توجّه إليه.. وبدأ يحسّ بأنه قد أصبح رجلاً وفكر في أن يعمل،وقرأ يوماً في الصحيفة عن وظائف شاغرة و بدأ يتابع في اهتمام نوع الوظيفة التي يمكن أن يمارسها، فما لديه من شهادات لا تؤهله إلا لوظيفة في المرتبة التاسعة.. فأحسّ بالضياع وتمنى لو تابع دراسته حتى يستطيع الحصول على وظيفة مناسبة وبدأ يقنع نفسه بأن يعمل حتى يتخلص من حياة البطالة والخمول. خاصة ودخل أمه بدأ ينضب بعد أن نافستها في صنعتها هذه المتاجر الفخمة التي تعرض مختلف الموديلات من الفساتين بأسعار زهيدة.

وبدأ الحياة العملية في وظيفته التي اختارها، ووجد في زملاء العمل ممّن لهم نفس ظروفه ما شجعه على الاستمرار والكفاح في العمل.. ولكنه لم يتخلص بعد من عقدة النقص التي كان يشعر بها نحو التصاقه بأمه،فكان يسلمها راتبه بعد أن يأخذ منه حاجته الضرورية،وعزّ على الأم أن ترى ابنها المدلل يتحمل مشاق السير إلى عمله على قدميه بينما زملاؤه من الشباب يمتطون سيارات زاهية إلى أعمالهم،وقررت أن تبيع المنزل الصغير وهو كل ما بقي لهذه الأسرة،ثم خطرت لها فكرة لماذا لا يتزوج سمير.. إن قيمة البيت تكفي لشراء سيارة ومهر العروس وتكاليف الزواج.. إنها تريد أن تفرح به فهل يوافق ابنها؟! طبعاً إنه لا يخالف أمرها. إنها لم تتعود أن يقول لها يوماً في حياته. «لا». إنه مطيع منفذ لكل أوامرها ورأت هذه المرة أن تستشيره لتعرف رأيه. وحين عاد «سمير» عند الظهيرة إلى البيت، وكان يبدو عليه الإعياء والإرهاق.. فقد كان الجو قاسياً ملتهب الحرارة، واقتربت منه بعد أن ارتدى ثيابه المنزلية وجلست

بجانبه وفي حنان ورقّة قالت له:

الأم : أراك منهك القوى يا بني والعرق يتصبّب من جسدك كلّه.

سمير : إيه!!. الجو في الخارج لا يطاق،وقد تأخرت اليوم في عملي ومضت سيارة الموظفين بدوني.

الأم : (في دهشة) سيارة الموظفين.. ولكني لا أعلم أن للموظفين سيارات وما رأيتك يوماً تمتطيها.

سمير : إن حكومتنا يا أماه لم تبخل على صغار موظفيها بتأمين تنقلاتهم. ولكن العيب في دارنا فهو يقع في منعطفات ضيّقة ولهذا أضطر للنزول عند أول الشارع.

الأم : مسكين يا بني. لكم يصعب علي أن أراك في هذه الحال. ما رأيك في اقتناء سيارة صغيرة تريحك من عناء المشي وحرارة الجو اللاهبة؟!

سمير : «يضحك» سيارة وأنّى لموظف بسيط مثلي المقدرة على اقتناء سيارة؟! (إيه) حيث يتوفر المال يا أماه تتوفر السيارة.

الأم : السيارة! المال موجود يا بني فلا تفكر فيه.

سمير : (يضحك) وأين هو؟ بالله لا تسخري يا أماه! دعيني لحالي واتركيني أستريح من هذا الجو الخانق.

الأم : إنني جادة في كلامي،وقد قررت بيع المنزل لتقتني سيارة وما بقي منه يمكن أن نزوجك به.

سمير : (في غضب) مستحيل. مستحيل أن نبيع دارنا الوحيدة من أجل سيارة وزواج.. هذه أنانية أتريدين «نوال» تقيم الدنيا وتقعدها علينا؟! إنها شريكتنا في هذا البيت، ثم إن إيجار البيت السنوي الآن زاد ونحن في حاجة إليه.

الأم : هدىء من روعك يا بني فـ«نوال» موافقة وهي أختك وأنت أصبحت رب أسرتنا والعائل الوحيد لها.. ثم إني قد أتممت صفقة البيع مع جارنا الشيخ «محمد».. ولم يبق سوى الإفراغ له في المحكمة واستلام البيت.

سـمير : مـا دام هـذا قـرارك فـلا بـأس،ولكنني رجوتك تأجيل الزواج لأني ما أزال صغيرا، ولست بقادر على تحمل أعباء الحياة الزوجية.

الأم : قلـت لك لا تخالف أمري، وسأبحث لك منذ اليوم عن عروس تليق بك. المهم أن تحضر السيارة ودع الباقي لي.

سـمير : سمعاً وطاعة يا أماه.

ورغم أن سمير لم يقتنع بالفكرة التي عرضتها أمه عليه، وخاصة موضوع الزواج لأنه يشعر أن راتبه الضئيل لا يكفيه لتحقيق حياة سعيدة هانئة مع زوجته،ولكنه لا يستطيع أن يفرض شخصيته على أمه لقد سلبته إرادته منذ صغره إنها تأمر، وعليه أن يطيع و ينفذ.

وأحضر السيارة وأحس بالغبطة والنشوة وهو يمسك بمقود السيارة،وكأنه أحد أبناء الذوات،وأخذ زملاؤه في العمل يعاملونه في لطف وأدب وتقدير بالغ حتى يتاح لهم مشاركته في ركوب السيارة بدلاً من حافلة الموظفين الضخمة وجوها الخانق المزدحم، وسائقها النّكد العابس الذي يأتي يوماً و يغيب آخر وكأن الحافلة ملك له.. وأحسّ «سمير» أن السيارة أكسبته شخصية أخرى فهو محبوب بين زملائه،الكل يسعى لإرضائه وتقديره وتمادى في كرمه و بدأ يدعو الأصدقاء لنزهة إلى البحر،أو إلى مقهى خارج البلد، ولكن راتبه الضئيل لايكفي لسد نفقات الأسرة ومتطلبات سيارته. و بدأ يعمل فكره. إنه لا ير يد أن يظهر أمام زملائه بالعجز حتى لا يخسر صداقتهم، ووجد الحل فمايزال في البنك مبلغ كبير من قيمة الدار فلماذا لا يسحب جزءاً منه دون أن تشعر والدته.. ونفذ المخطط الذي ارتضاه لنفسه ظناً منه أنه لن يكون أوفر حظاً من أبيه،فالمنيّة سوف تأتيه بغتة في ر يعان شبابه،وعمر الشباب في الحياة قصير لا يعوض أبداً...

و بدأ ينفق في سخاء مع أصدقائه وسهراته،وأحسّت الوالدة الذكية أن ابنها يلعب بالنار،وأنها لو تمادت في السكوت فقد يخسر كل شيء، المال والزواج، وربما الوظيفة. و واجهته بالحقيقة،فاعترف في الحال وسلّم لها ما بقي من النقود،وحمدت الله أن ما

سحب ضئيل. وبدأت تفكر جديًّا في البحث عن فتاة تليق به، ووجدت ضالتها المنشودة. إنها فتاة رائعة الجمال. رأتها يوماً تذاكر مع ابنتها فأعجبت بها، وانتهزت يوماً فرصة زيارتها لهم وأرتها لـ«سمير» من ثقب الباب، وفتن بها وأعجبته، وبدأ الحب يغزو قلبه.. ولم يعد يفكر إلا في «ناهد»، الإنسانة التي رآها عن قرب وأشعلت نار حبه. إذا ما تأخرت يوماً عن المذاكرة مع شقيقته أسرع بسيارته يحمل أخته إليها لتطمئنه عليها. إنه يريد أن يسعد بجانبها لتقرّ عينه بها.. ومضت أيام وأيام، ووالدته تحاول السّعي من أجل الزواج. ولكن أسرتها طلبت التأجيل بدعوى أن ابنتهم ما تزال صغيرة السن، وهو موظف بسيط، دخله لا يسمح بإعالة أسرته الكبيرة. وشعرت الأم بالحرج وأدركت أن أسرة الفتاة تطمح في زوج ثري مناسب. فأختها الكبرى تسكن في قصر منيف مع زوجها التاجر الثري، ورغم كبر سنه إلا أنه يغدق عليهم الهبات والمال. و«سمير» لا تتوفر له هذه المميزات.

وصارحت الأم ابنها بالحقيقة، وأبلغته أنها ستبحث له عن غيرها.. ولكنه ثار وأرغى وأزبد، ولأول مرة يشقّ عصا الطاعة على أمه، وأدركت أنه يحب الفتاة، وهذا شيء فوق قدرته وإرادته وبدأت تخطط لتحقيق أمنيته. ولم تترك وسيلة إلا وسلكتها وبدأت «نوال» تحاول من جانبها مع صديقتها «ناهد» إغراءها بالزواج من أخيها. ووجدت استجابة طيبة من الفتاة، فـ«سمير» شاب في مثل سنها، ويمتلىء حيوية ونشاطاً والمستقبل أمامه. ولكنها لا تستطيع أن تفاتح أباها، وحاولت التأثير على أمها لإقناع أبيها، وكلّلت جميع الخطط بالنجاح وزفّت «ناهد» إلى «سمير».

وتحقق الحلم الجميل للزوجين وعاشا بضعة أشهر في سعادة ورفاهية، ثم بدأ الجو ينذر بالعواصف الشديدة، إنها الغيرة الحمقاء، غيرة الأم وهي ترى تعلّق ابنها بزوجته الشابة وتفانيه في حبها ومراعاة شعورها.

إذا جاء البيت اتجه إلى غرفة زوجته ليمضي معها الوقت كله، لا تراه إلا عند تناول الطعام أو عند ذهابه إلى العمل، حتى النزهات خصّ بها زوجته وحدها، ونادراً ما يفكر في اصطحابها وشقيقته معهما، وبدأت المضايقات من جانب الأم تجاه الزوجة

والشكوى تنهال على رأس «سمير» الصغير من الجانبين. وبدأت الأم تحاول السيطرة على ابنها من جديد،مذكّرة إيّاه أنها ضحّت بشبابها من أجله، متّهمة زوجته بالكسل والإهمال،وترك شؤون المنزل على رأسها وحدها،ونجحت الأم في إثارة ابنها نحو زوجته، وبدأ الجو يتلبّد بالغيوم ولم تستطع الزوجة المقاومة وهي ترى خضوع زوجها لإرادة أمه المطلقة، وانهارت مقاومتها وبدأت المشاحنات على أشدها تزداد يوماً عن آخر،وضاقت بحياتها،فالدنيا أمامها أصبحت حالكة السواد،وأقفلت على نفسها الباب،وانفجرت باكية.. فالمرأة لا تجد وسيلة تعبّر بها عن آلامها سوى البكاء.

ودخل سمير البيت يوماً ووجد الجو مكفهراً.. وما أن فتح الباب حتى راحت الأم تكيل التهم جزافاً لزوجته ترغي وتزبد وتهدد وتوعد، وارتسم الغضب على وجهه ودون أن يناقش الموضوع ويبحثه في تؤدة ويفكر فيه، اتجه مباشرة إلى غرفة زوجته وسمع عويلاً من الداخل وأخذ يدق الباب في عنف ولم ينتظر فلكز الباب بشدة حتى فتحه ووجدها مستلقية على السرير ترتبكي في عصبية.

سمير : ناهد. ناهد. ما شاء الله. أتحسبين أني أصدقك؟!. أما يكفيك ما صنعته بأمي؟!

ناهد : (تقول وهي مستمرة في بكائها) هل صدقتها يا سمير؟ إنها تعذبني تعذبني أرجوك ارحمني!!

سمير : أنت كاذبة. كاذبة. أمي لا تعذب أحداً إنك لا تضمرين لها أي حب.. لم يبق إلا أن تكون خادمة لك. إنها أمي.. أمي.. هل تسمعين؟ لن أسمح لك بعد الآن بإهانتها.

ناهد : من قال إني أهنتها إنها تعاملني بخشونة وكأني أمَة لها أيرضيك هذا؟

سمير : أما زلت تماطلين،أيمكن أن يحدث هذا من أمي، أنت أنانية لا يهمك إلا نفسك، لم تعودي تهتمين بالبيت تركت كل شيء لأمي، قومي واعتذري لها وقبّلي رأسها لكسب رضاها.

ناهد : (تضحك في هستريا) أعتذر لها أهذا معقول؟! بل هي التي تعتذر لي

فهي التي أساءت إلي.. إني مظلومة. مظلومة (وتبكي).

سـمير : إخالك قد جننت من أنت حتى تعتذر لك أمي. أراك قد جاوزت حدّك.

نـاهـد : بل أنت الذي تجاوزت حدّك إنني زوجتك ولي حقوق عليك ومن واجبك حمايتي من ظلم أمك.

سـمير : كفى. كفى. لا أريد أن أسمع شيئاً وإلا حطمت غرورك وكبرياءك.

نـاهـد : (في سخرية) وماذا في وسعك أن تفعل أيها البطل الهمام.

سـمير : سأريك الآن، خذي (ويصفعها على وجهها صفحة قوية).

نـاهـد : (تبكي) ثم تقول: أهذا جزاء صبري إنك جبان. جبان.

سـمير : إيّاك أن تتمادي في إذلالي وإلا حطمت رأسك.

نـاهـد : لم أعد أحتمل حياتي معك بعد هذه الإهانة، وأولى بك أن تطلقني.

سـمير : (يضحك في سخرية) ثم يقول «أطلقك» هذا من رابع المستحيلات. أتفهمين؟

نـاهـد : إذاً اسمح لي أن أذهب إلى دار أبي فما عدت أطيق العيش في هذا البيت.

سـمير : الباب أمامك مفتوح. اغربي عن وجهي هيّا اغربي عن وجهي.

نـاهـد : أفهم من هذا أنك تطردني يا «سمير».

سـمير : أنت التي أردت هذا هيا غادري هذا البيت إلى غير رجعة هيا.

وتسرع «ناهد» بالخروج بعد أن ترتدي ملابسها،وموجة من الألم والحزن تعصف بها،فقد كانت الإهانة التي وجّهت إليها كالخنجر المسموم وأدركت الأم فداحة ما ارتكبته من خطأ جسيم في حق هذه الفتاة،وحاولت أن تصدّها عن الخروج ولكن «ناهد» مرقت كالسهم لا تلوي على شيء. يصحبها الخادم الصغير إلى بيت أهلها وفي الغرفة الأخرى شقيقة «سمير» تحاول إخفاء دموعها وحسرتها على صديقتها «ناهد» فهي تدرك أنها مظلومة وأن الغيرة الحمقاء هي التي دفعت بأمها لإثارة سمير ضدها، ولكنها تخشى أن تنبس ببنت شفة حتى تتقي غضب أمها. ورأت أن الصمت حكمة، ودفنت الآلام في صدرها. أما سمير فقد آوى إلى غرفته بعد أن أوصد الباب بالمزلاج،

واتكأ على حافة النافذة يفكر في المصيبة التي حلّت به ويحسّ بأنه ربما قد ظلم زوجته، إنه لم يترك لها فرصة الدفاع عن نفسها حتى يمكن أن يحكم عقله وفكره، فقد أعماه حبه لأمه عن كل شيء. وأجال طرفه في الغرفة إنها منسّقة ونظيفة،كل شيء قد وضع في مكانه،فهل يعقل أن تكون زوجتي مهملة كما وصفتها لي أمي؟! لماذا لا تكون ناهد مظلومة؟ إنني ما رأيتها يوماً تقصّر في واجبها المنزلي دائماً،أراها تشارك أمي كل شيء في هذا البيت.. أليس من المحتمل أن تكون تعبة من الحمل إنها في شهرها الثالث؟.

ونظر إلى كفّه الذي هوى به على وجهها الشاحب وتألم. إنها المرة الأولى التي ينقلب فيها إلى وحش كاسر. وبدأت الآلام النفسية تعصف به وأحسّ بنفسه كشجرة تتقاذفها الرياح والأعاصير لتقلعها من جذورها وتلقي بها في اليمّ أو في مكان سحيق. ولم يعد يطيق البقاء في غرفته بل في الدار كلها واندفع خارجاً ليلقي بنفسه في سيارته ليقودها في سرعة جنونية غير آبه بتوسلات أمه،وفي الطريق ارتطمت سيارته بشاحنة نقل وكانت الصدمة قاسية وعنيفة، ونقل على إثرها للمستشفى وطار صواب والدته حين علمت بالخبر، وجنَّ جنونها وأسرعت على الفور إلى المستشفى فوجدت ابنها فاقد الوعي لا تكاد ترى وجهه من الأربطة التي أحاطت برأسه الصغير، وأنين خافت يخرج من شفته يردد «ناهد». «ناهد». واقتربت الأم والدموع ملء عينيها، إنني السبب في كل هذا، ما أشد قسوتي وظلمي. يارب سامحني واغفر لي خطيئتي.. فلولا إثارتي لابني ضد زوجته ما وقع هذا الحادث الأليم.. يارب سامحني إنها الغيرة. الغيرة. التي أعمتني وقادتني إلى الانتقام. وتبكي الأم في حرقة وتحاول أن تفكر في إعادة المياه إلى مجاريها ولم تجد وسيلة غير الذهاب لـ«ناهد» لتنقل إليها حادث زوجها وتعتذر لها ولأسرتها علّ قلبهم يلين و يرقّ و يعود الصفاء والتآلف إلى القلوب بعدما أصابها التصدّع وأسرعت إلى أسرة زوجة ابنها ومعها بعض أقاربها ممّن عرفوا بالاتزان والحكمة، ولم تشأ الأم إزعاجهم بحادثة ابنها وراحت تعتذر عمّا بدر منها تجاه زوجة ابنها واقتنعت الأسرة بما أبدته الأم من أسف عميق كان ينبعث من قلب صادق.. ولكن ناهد! مايزال الشك يساورها فراحت تبكي وأقبلت عليها أم «سمير» تضمّها إلى

صدرها وانطلقت دموعها المحبوسة تسيل على خدّها، وهمست في أذن «ناهد» في صوت ينمّ عن حزن عميق:

الأم : صدقيني يا ابنتي إنني أتالم لإساءتك وقد أدركت فداحة خطئي.. مسكين «سمير» لقد كان الضحية (وراحت تبكي).

ناهد : ضحية إن قلبي يحدثني أن «سميراً» قد وقع له حادث.

الأم : (تواصل استمرار البكاء) ثم تقول إن حدسك في محلّه. «سمير» في المستشفى يا ابنتي.

ناهد : (في فزع) مستشفى يا إلهي ماذا حدث له؟!

الأم : لقد اصطدم بشاحنة نقل وهو الآن فاقد الوعي.

ناهد : (تبكي ثم تقول) مستشفى.. فاقد الوعي.. أسرعوا بي إلى المستشفى أريد أن أراه. مسكين يا حبيبي سمير (وتواصل استمرار البكاء).

وتمضي الأسرة كلها إلى «سمير» ولكنه مازال يعاني من آثار الصدمة العنيفة.. كانت عيناه شاخصتين إلى سقف الحجرة، وصوت خافت يخرج من بين شفتيه يردد مظلومة مظلومة. وتقبل عليه زوجته والحزن بادٍ على محيّاها، وأطرافها ترتعش بينما وقفت أم سمير بجانبها، ودموع ساخنة تجري على وجنتيها وتطلّع سمير إليهما ولم تصدق عيناه ما رأى وبعثت هذه المفاجأة السعيدة في نفسه نشوة الحياة وبهجتها، وأحسّ بأنه قد ولد من جديد فما أجمل عودة الصفاء والحب والتعاطف والتسامح بين أفراد الأسرة الواحدة.




نرجس



نرجس

كانت في الخامسة عشرة من عمرها،تعيش في إحدى قرى الهند الآمنة.. أرسلتها أمها يوماً إلى عمتها لتحضر لها غربالاً. واختارت أن يكون طريقها من الحقل، فهو أقرب إلى بيت عمتها، كانت تغنّي في مرح وخيلاء.. وفجأة انقض عليها من بين الأشجار رجلان وضع أحدهما على وجهها منديلاً من النوع الذي يستعمل للتخدير بينما الآخر راح يوثقها بحبل. ولم تستطع الفتاة أن تبدي أيّة حركة.. فقد نفذ المخدر إلى أعماقها وأغمي عليها وحملت في سيارة جيب كانت تقف على جانب الطريق. وانسلّت السيارة بها تعبر الطريق ولم تشعر الفتاة بنفسها إلا في وسط سفينة حقيرة تمخر عباب البحر. وأصابتها الحيرة فأخذت تبكي في حرقة وخشي الرجل الذي يصحبها أن يفتضح أمره،فهددها بالقتل وإلقاء جثتها في اليم إن هي كشفت عن سرّها، أو أباحته لمخلوق.

وعزّت عليها الحياة بعد أن أدركت بشاعة الموت التي ينتظرها.. وفتاة صغيرة في مثل سنّها من الصعب أن تقاوم.. حتى الدموع حرّمت عليها، فقد كانت أعين الرجلين اللّذين اختطفاها كافية لتجمد الدموع في مآقيها. واستجابت لحكم القدر، وحاولت أن تنام لتستريح من آلامها.. بيد أن الخوف الذي سيطر عليها جعل النوم يجافي عينيها. وأخذ أحد الرجلين يهدىء من روعها و يطمئنها بأنها لن تمس بأذى أو ضرر، فالمحافظة على حياتها أشد ما يحرصان عليه وإلا ضاع كل ما بذلاه من جهد واقترب منها الرجل وسألها:

شـــابـــو : هل يمكن أن أتعرف على اسمك يا صغيرتي العزيزة؟

الـفـتـاة : وماذا يفيدك هذا ..؟

شـــابـــو : لا تنزعجي يا فتاتي الصغيرة.. فأنا منذ اليوم سيدك.. هل تفهمين؟

الــفــتــاة : سيدي !! (في استغراب).. بل أنت لص حقير سافل سوف تنال جزاءك إن عاجلاً أو آجلاً.

شـــابـــو : (في غضب) لو كررت هذا القول مرة أخرى ألهبت جسمك بهذا السوط ها هو.. انظري. ضربة واحدة منه تكفي لإيلامك أسبوعاً بأكمله.

الــفــتــاة : يبدو أن الرحمة قد نزعت من قلبك.. أليس لك بنات في مثل سني؟!. ألا تخشى أن يقبض عليك بتهمة اغتصاب وسرقة فتاة صغيرة مثلي..؟

شـــابـــو : (يضحك) أنا لا أملك غير الجواري يا صغيرتي.. وهذه تجارتي.. أفهمت الآن مركزك يا فتاتي.. أقصد ياجاريتي العزيزة.. (خاتون)؟! هذا اسمك الجديد طبعاً الذي اخترناه لك.

الــفــتــاة : يالك من وغد سافل.. أتسرقني لتجعل مني أمَة تباع وتشترى..؟! لئن فاتك العقاب في هذه الدنيا فإن الله لك بالمرصاد يوم الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

شـــابـــو : يالك من فتاة غرة مغرورة.. خذي فقد يغيرك هذا.. (و يلهب جسدها بالسياط)..

وقد سمع صوت السياط..

زميل شابو : (يفتح الباب) أجننت يا «شابو» حتى تضرب الفتاة.. أنسيت أن أثر الضرب قد يقلل من ثمنها أو ينفر المشتري منها..؟

شـــابـــو : لقد أثارت أعصابي يا صديقي، و بودّي لو ألقيت بها في اليم لتكون طعماً للأسماك المتوحشة.

زميل شابو : ها هو الأكل .. دعها تتناول العشاء معنا .. هيا يا خاتون تناولي عشاءك معنا..

خـــاتـــون : إن نفسي تعاف طعامكم القذر أيها السفلة، وخير لي أن أموت جوعاً من أن أذوق لقمة واحدة من هذا الطعام.

زميل شابو : دعها يا « شابو » الآن.. فالجوع كافر وخاصة في مثل هذا الجو الرهيب وستجد نفسها مرغمة على أكله شاءت أم أبت.

وتأبى الفتاة المسكينة أن تمد يدها إلى هذا الطعام.. إلا أنها تحسّ بالجوع يفري معدتها و ينتابها دوار البحر بعد هبوب رياح شديدة جعلت السفينة تتأرجح.. وتضافرت عليها آلام الجوع والفزع الشديد، وانتابها دوار البحر حتى كاد يفقدها وعيها ولم تحتمل فامتدت يدها إلى القصعة الحقيرة لتلتهم ما تبقّى فيها من طعام، بينما راح « شابو » وزميله يتهامسان وعلى وجههما ابتسامة النصر والفوز بهذا الصيد الثمين، وأحسّت الفتاة بضعفها فتهالكت على سريرها الخشن وأغمضت عينيها واستسلمت لنوم عميق، بعد أن أرهقها السهر الطويل، والرحلة المضنية والتفكير في المصير المظلم الذي ينتظرها. وأفاقت من نومها في اليوم التالي ونظرت حولها فرأت « شابو » وزميله يغطّان في نوم عميق.. فانتصبت قائمة وانسلّت تزحف في بطء نحو الباب علّها تجد نسيم الحرية، أو قلوباً رحيمة تنقذها من هذا العذاب الذي تعيش فيه.. ولكنها ما إن بلغت باب الغرفة وحاولت فتحه حتى انبعث صوت صفير الباب مما جعل « شابو » يقفز من سريره و يركض خلفها ولحقها عند شرفة السفينة. ونظرت الفتاة حولها ولم تجد غير أمواج تتلاطم كالجبال. وراودتها نفسها أن تتخلص من هذا العذاب المهين وتلقي بنفسها في جوف البحر الصاخب.. ولكنها أحسّت بالرهبة والخوف وسرعان ما أحسّت ببرودة تسري في مفاصلها، وانتهز « شابو » فرصة شرودها فشدها داخل الحجرة من جديد بينما كان زميل شابو يلوح بالسوط الجلدي في يده، وألقت بنفسها على سريرها تبكي في حرقة ومرارة، ودنا منها « شابو » وراح يطيب خاطرها و يعدها بالانفكاك من هذا الأسر عن قريب، فلم يبق سوى أيام قلائل، وترسو السفينة عند أقرب ميناء حيث تجد كل الراحة عند سيدها الجديد الذي سوف يتقدم لشرائها، وغالباً ما يكون هذا المشتري من ذوي الثراء ممن يملكون القصور الفاخرة والرياش الجميلة، وهناك تجد النعيم والسعادة في كنف هذا السيد الثّري. وإنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً فجواز سفرها والوثيقة التي بيدها تثبت أنها أمَة، لمالكها الحق في بيعها وشرائها، وألقى إليها بالجواز والوثيقة فتطلعت إليها مشدوهة فكل ما ذكره « شابو »

صحيح لايقبل النقض وأنّى لها أن تثبت أنها حرة لاأمَة وليس بيدها ما يثبت هذا؟!. وأحسّت بغصّة وحرقة وراحت تبكي وتتوسل لشابو أن يطلق سراحها،وأسرتها على استعداد لفدائها بكل ما تملك.. ولكن توسّلاتها ذهبت أدراج الرياح فإن مثل «شابو» ومن على شاكلته قد قدّ قلبهم من صخر،ونزعت منه كل رحمة إنسانية. ولم تجد بدًّا من الامتثال للواقع المرير ورفعت يدها إلى السماء.. «يارب».. أنت وحدك قادر على إعادة حريتي وإنقاذي من هؤلاء المجرمين المتاجرين بحرية خلقك.. «واندفعت تبكي».. وهكذا شاءت الأقدار أن تتحول الفتاة الحرة «نرجس» إلى «خاتون» الأمَة تباع وتشترى في أسواق العبيد. وكان جمالها الذي تتمتع به يرفع اسهمها إلى ثمن باهظ. ورغم انتقالها من سيد لآخر.. إلا أنها استطاعت أن تحافظ على نفسها، وكم ذاقت مرّ العذاب وهوانه على أيدي سادتها. ولكنها لم تستسلم.. فقد قاومت في عنف وشراسة كل من تصدّى لها. ولكن الأقدار رأفت بحالها.. فاشتراها سيّد عربي وأحسن معاملتها وأكرم وفادتها بعد أن عرف منها قصة حياتها. ووجدت «نرجس» العطف والحنان في كنف سيدها الجديد،فأخلصت في خدمته وسهرت على راحته،وحين أعلمها سيدها بأنه ينوي الرحيل إلى أرض النور الخالدة.. إلى «أم القرى» لتعيش في رعاية أسرته «بمكة».. تهلّلت أسارير وجهها فرحاً وغبطة. فكم كانت تتمنى من أعماق فؤادها أن ينعم الله عليها بالزيارة والحج لبيت الله الحرام.. وها هي الفرصة قد واتتها لتكون في كنف الرجل الطيب الصالح الذي أنقذها من براثن الأوغاد المتاجرين بالحرية،وسجدت لله شكراً على نعمائه.. ومضت مع سيدها تغمرها السعادة والفرح وما إن صافح بصرها رؤية أم القرى «مكة المعمرة» حتى انسابت الدموع من عينيها فما كانت تتصور أنها يوماً ما ستسوقها الأقدار إلى هذه الأرض المقدسة وهي في ريعان شبابها لتصورها بأن من يأتي حاجاً إلى هذا البيت الحرام لابد أن يكون قد بلغ من الكبر عتيًا.

ورنت ببصرها إلى السماء لتشكر خالقها على ما حباها من حنان وعطف وحب وخلاص من الأسر والعبودية،ولكن هذه السعادة والغبطة لم تدم إلا قليلاً.. فما إن رأتها زوجة الشيخ «سعيد» حتى انفجرت في زوجها صائحة:

الزوجة : ما هذا يا سعيد..؟ أمن أجل هذه الأمَة طالت غيبتك.. أنسيت أن لك أسرة وأولاداً..؟ هيّا اطردها حالاً.. من المستحيل أن تبقى هنا دقيقة واحدة..

سعيد : هدئي من روعك يا أم «خالد».. إنها فتاة مسكينة لا أهل لها ولا وطن ولو أسمعتك قصتها لرثيت لحالها.. إنها فتاة حرّة سرقت و بيعت كأمَة. وقد اشتريتها لأنقذها من محنتها وكربها.

الزوجة : (تضحك في هستريا) واعجباه !!. أتحسبني ساذجة وغبيّة لهذا الحد، حتى أصدق ما تدّعيه،(ثم تقول في غضب) هيّا دعها ترحل حالاً أو تصرف في بيعها،المهم ألاّ تمكث هنا في هذا البيت ثانية واحدة.

سعيد : أقسم بالله يا أم «خالد» أنني صادق في كل ما ذكرته لك عن هذه الفتاة،فحرام أن تظني بها سوءاً. إنها فتاة غريبة وهي أولى الناس بعطفك يا أم خالد.. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..

خاتون : (تبكي) إنني إنسانة مغلوبة على أمري يا سيدتي.. أنا أمَتك ياسيدتي وفي خدمتك وطوعاً لأمرك رجوتك أن تقبليني وسوف تجدين مني كل ما يسرك و يرضيك.. (ثم تبكي)..

الزوجة : (في تأثر) لا حول ولا قوة إلا بالله.. لست أدري ماذا أنا فاعلة انصرفي يابنتي الآن إلى المطبخ والله يتولاّنا برعايته..

خاتون : شكراً لك يا سيدتي.. والله يجزيك كل خير..

سعيد : شكراً لك يا زوجتي العزيزة.. وثقي أن الله سوف يجزل لك ثوابه فوالله ما رأيت بؤساً في مثل حالها. تصوري أنّي عرضت عليها العتق ولكنها أبت أن تفارقني خشية أن تقع في أيدي مجرمين آخرين يسومونها سوء العذاب.

الزوجة : الحق أن قصتها دامية وتستحق الرثاء والشفقة. ولكني بصراحة أخشى على «خالد».. إنه شاب يافع وهي تتمتع بجمال صارخ وهذا ما يخيفني و يؤرقني..

سعيد : اطمئني من هذه الناحية يا أم خالد.. فكم من سيد حاول أن ينال منها

ولـكنهـا قاومت في عنف وضراوة حتى بخس ثمنها ولم يعد مخلوق يطمع في شرائها.

الـزوجـة : على أيـة حـال فـخالد مرشح في بعثة دراسية إلى الخارج بعد شهرين وهي مدة قصيرة وسأحاول من جانبي مراقبتها.

سـعـيـد : أنا واثق أن خالداً أعقل من أن يفكر في أمَة.

وعادت نضارة الحياة إلى محيا «نرجس» بعد أن زالت السحب الكثيفة التي كادت أن تعصف بحياتها، وتلقي بها في خضم متاعب الحياة من جديد بعد أن شعرت بالأمن والاستقرار، وبدأت تتفانى وتخلص في خدمة هذه الأسرة وبدأ الجميع يعطف عليها و يولونها رعايتهم، وكأنها فرد منهم لا أمَة، تقوم بشؤون خدمتهم، تشاركهم طعامهم وتتحلّى بأزهى الملابس وأفخرها. حتى بات من لا يعرف حقيقتها يخالها فرداً من أفراد هذه الأسرة. وأضفى عليها هذا الحب والحنان الدافق بسطة في الجسم وخفّة في الروح وروعة في الجمال.

وشعر خالد بميل نحوها وحب عظيم تجاهها.. وحاول أن يصارحها بما يختلج في فؤاده ولكنها حاولت أن تتجاهل وتتغابى حتى لاتسيء إلى من أحسن إليها رغم أنها تشعر أنها تبادله نفس الشعور والحب.

وسافر «خالد» إلى الخارج لإكمال دراسته وفي قلبه حب كبير لـ«نرجس».. الإنسانة الطاهرة العفيفة.. وودعته «نرجس» وقد تجمدت دموع ساخنة في مآقيها.

واستمرت في رعاية هذه الأسرة تخدمها في إخلاص منقطع النظير وفاء منها لهذه الأسرة الطيبة. أما «خالد».. فلم يستطع أن يكبت حبه نحو «نرجس».. فصارح والديه في رسالة مطوّلة بكل شيء وأشفق والداه على «خالد» ما يعانيه في غربته.. وماذا يقول الناس لو تزوج «خالد» من أمَة..؟

إنه سيكون أضحوكة ومضغة في كل الأفواه.. ولكن «نرجس» فتاة حرة وتتمتع بقسط كبير من الجمال ودماثة الخلق واشتدت بهما الحيرة والقلق.. وجاء المرسوم

الملكي الذي أصدره الفيصل العظيم يعتق كل من بحوزته مملوك.. فما أعظم الحرية وأقدسها.. إنها أثمن مافي هذه الحياة. وفي فرحة بالغة أقبل الوالدان يزفّان إلى «نرجس» النبأ السّار الذي صدر من ملك عادل يقدّس الحريات ويمقت العبودية،وفي صوت ممزوج بالفرح والدموع قالت «نرجس»: ومن قال إنني لست حرة.. لقد شعرت بكامل حريتي منذ أن وطئت قدماي عتبة هذه الدار..

وأجابها الشيخ «سعيد» في هدوء.. ليس هذا كل شيء يا ابنتي.. فإن ما أريد أن أصارحك به الآن رغبة ابني خالد في الاقتران بك.. فما رأيك..؟

وأذهلتها المفاجأة.. التي لم تكن تتوقعها، وعقدت لسانها وانهمرت عيناها بالدموع.. إنها دموع الفرح بيوم الخلاص التي أتاح لها حريتها وتحقيق أعز أمانيها وأحلامها..






المفاجأة الأخيرة



المفاجأة الأخيرة

أحسّ الثري الشيخ «سعيد» بأن الأيام تمضي به سراعاً بعد أن هدّه المرض وأقعده عن عمله، ونظر إلى ثروته الطائلة التي كوّنها بعرق جبينه، وليس له من يرثها سوى ابنه الشاب «عادل» وأحسّ براحة نفسية تملأ جوانبه، لأنه سيموت راضي النفس بعد أن أمّن لفلذة كبده وأسرته كل شيء..

ولكن يا ترى أيستطيع «عادل» أن يدرك مدى المتاعب والآلام التي تجشمتها في سبيل تأمين هذه الثروة..؟ ورأى من الحكمة أن يلقّن وحيده درساً في الحياة حين أحسّ بشبح الموت يدنو منه.. ووسط موجة الألم والحزن استمع «عادل» إلى أبيه وهو يحدثه في صوت ممزوج بالحسرة والألم، قال:

لا أحسب هذه الدنيا يا بني إلا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وكل نفس ذائقة الموت، وإني لأشعر أن نهايتي قد اقتربت، وقد تركت لك ثروة لا تقدّر بثمن تكفيك مدى الدهر.. أوصيك قبل كل شيء بتقوى الله في السرّ والعلن، والرحمة والرأفة بأسرتك، والحب والعطف على الفقراء والمساكين والمعوزين.. فإياك أن تحرم فقيراً من صدقة منحته إياها.. وحذار من الغش في تجارتك، واختر لنفسك من الأصدقاء أكثرهم تقوى وأرجحهم عقلاً، وأبرّهم بالفقراء وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن مسالك الشّر. وعليك بكل ذي خلق ودين..

أما زوجتك الوفيّة.. فهي سراج بيتك.. فأوصيك بها خيراً فهي نِعم من رأيت تقوى ووفاء وأمانة وإخلاصاً وحباً لك.. والله يوفقك ويهديك سبيل الحق والرشاد.. وأغمض جفنيه بعد أن شعر براحة نفسية تملأ جوانب نفسه، وجزع «عادل»، إنه يحب والده حباً عميقاً.. فاقترب منه قائلاً: لا تقل هذا يا أبي.. يا أعز أب في هذا

الوجود،إنها وعكة بسيطة وستزول حالاً.. و ينظر إلى أبيه فإذا به يعاني سكرات الموت.. يعلو صدره ويهبط حتى أسلم روحه لبارئها..

ونشر الحزن أعلامه السوداء القاتمة على الأسرة كلها.. والأصدقاء والأوفياء،وكان أشدهم حزناً على فراقه زوجة «عادل».. فقد كان رحمه الله بالنسبة لها صمام الأمان، الذي حماها من عبث «عادل» وطيشه.. وهكذا تنفس الشيخ التقي الورع آخر نفس له في حياته بعد أن لقّن ولده درساً يضمن له السعادة،إذا سار على نهجه ونسج على منواله.

ومرت الأيام بطيئة قاتلة.. ثم بدأت سحابة الحزن تنحسر رو يداً رو يداً عن هذه الأسرة الحز ينة.. أما «عادل» فقد وهب كل وقته في بداية الأمر لتجارة أبيه ورعاية شؤون المنزل.. ولكنه سرعان ما مل هذه الحياة الرتيبة،وهو يرى الأموال تتدفق عليه كالسيل المنهمر. و بدأت رؤوس الشّر المتوثبة المتمثلة في قرناء السوء تطل من جحورها تنتظر الساعة الحاسمة التي يرون فيها «عادلاً» وقد مل حياة العمل.. و بدأت عزيمته تخور وتضعف.. و واتتهم الفرصة، فأقبلوا على «عادل» في مسوح الرهبان.. و بدأوا ينسجون خيوط مؤامرتهم الدنيئة حوله،ير يدون انتشاله من حياة العز والرفاهية إلى حياة الوحل والرذيلة.. وأثمرت مؤامرتهم فلم يكن «عادل» يحسّ بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، أو يدرك الشقاء والعذاب الذي قاساه والده في سبيل تجميع هذه الثروة.. لقد ولد وفي فمه ملعقة من ذهب. و بدأ «عادل» يستجيب لنزوات قرناء السوء، يبذر ما وهبه الله من مال،و يبعثره ذات اليمين وذات الشمال على سهرات أصدقاء السوء. ولم يكتف بهذا.. بل راح ينظر إلى الأفق البعيد حيث الليالي الحمراء في ملاهي بار يس وروما..

وحاولت زوجته المسكينة ذات الجناح الكسير أن تثنيه عن عزمه، وتحاول نصحه ولكن كل جهودها ذهبت أدراج الر ياح.. وظل عادل سادراً في لهوه وغيّه، يسير في ركب زمرة الشيطان من أصدقائه ممّن لا يردعهم ضمير أو يحول بينهم رقيب. حتى أصبح «عادل» فارسهم المقدام ينفق الأموال بغير حساب. وانخرط في الرذيلة يقضي

ليله الطويل على موائد الشر، والغواني الحسان ممّن لا هم لهن إلا ابتزاز الأموال.

وجرف تيار الفساد في نهم كل ما جمعه له والده من ثروة.. ووجد نفسه بعد بضعة أشهر من الإفراط في حياة الترف والدّعة قد أصبح خالي الوفاض لايملك في يده إلا تذكرة العودة إلى وطنه وبضعة نقود تافهة..

ووصل أرض وطنه الغالي كسير النفس والفؤاد.. لايدري كيف يلقى زوجته الوفيّة وأطفاله بعد أن ساءت حاله. وكان لقاء عاصفاً في بيت أسرته.. واستطاعت الزوجة العاقلة أن تدبر أمور نفسها في البيت الكبير الذي تسكنه بعد أن أهملها وأطفالها زوجها العابث.. فأحالته إلى شقق واتخذت لها شقة فيه لسكنها هي وأطفالها،تنفق على البيت من دخل هذه الشقق الشهري.. ووجد عادل القصر الكبير وهو كل ما تبقى من ثروته وقد أحيل إلى صورة أخرى.. وخالجه الشك في أن يكون هذا القصر قصره ولكن الزوجة سرعان ما تعرفت عليه.. فبعثت إليه بأحد أبنائه يرشده إلى الطريق.. ولم يصدق أن أكبر أولاده «سمير» قد نما واشتد عوده، وجالت الدموع في عينيه وتمنّى ساعتها ألاّ يكون له وجود في هذه الحياة.. حتى لا يروه على هذه الصورة المحزنة..

وعرفت زوجته بقصته كلها.. ولم تحاول أن تثير كوامن الألم والحزن بعد أن رأت ملامح اليأس والحزن البادية على محياه.. فأخذت تهدىء من روعه وتطلب منه أن يبدأ الحياة من جديد معتمداً على ساعده وعزيمته وشبابه الغض..

ولم يصدق «عادل» أن تقف منه أم أطفاله هذا الموقف الكريم الذي يدلّ على الوفاء والحب والإخلاص،وما تتمتع به من رحابة صدر وسعة أفق ورجاحة عقل.. وأحسّ أنه أمام امرأة عاقلة حكيمة؟ وشعر بالندم على إهماله لها وإساءته إليها وعدم إشراكها في الرأي، وشعر أنه يحبها ويحترمها أكثر من أي وقت مضى.. وتراكضت أمام عينيه أشباح الماضي البغيض وأصدقاء السوء الذين كانوا يتظاهرون له بالإخلاص والوفاء وهم بعيدون عنه حتى أحالوه إلى حطام.. وصمم على الكفاح وبناء حياته من جديد بعد أن أحسّ بطعم الحرمان والبؤس والشقاء.. ووجد من

زوجته المخلصة التشجيع لما رسم لنفسه من خطط.. ورأى من الخير له أن يبحث له عن عمل.. ولكن في غير هذه المدينة التي كانت منبت عزّه حتى لا تصدمه أعين من كان يتعامل معهم من التجار لتزيد من حسرته وقد تقضي على طموحه..

إنه لا يزال في عنفوان شبابه، وقد أحسن والده تعليمه وتثقيفه.. ولو قدر الحياة لوصل في تعليمه إلى مرحلة التعليم الجامعي.. ولكنه وصل إلى مستوى المرحلة الإعدادية، وهي شهادة تؤهله على الأقل لوظيفة كتابية في دائرة حكومية أو في محل تجاري، ولو أنه يفضل العمل في محل تجاري بحكم الخبرة التي اكتسبها بعد أن أدار محلات تجارته التي ورثها.. ووجد أن أنسب مكان له.. الرياض.. عاصمة وطنه الكبير.. فهي مدينة زاخرة بالحياة وبالتطور والتقدم في شتى مجالات الحياة.

وبين الدعوات والدموع، ودّع زوجته وأطفاله وانطلق لغايته الجديدة من أجل العيش والتضحية من أجل الحياة،تتزاحم في مخيّلته الآمال والأحلام.. يفكر في ماضيه اللامع ومركزه المرموق الذي أصبح أثراً بعد عين.. وتذكر نصيحة والده الخالدة وهو على فراش المرض.. وأسدل على ماضيه ستاراً كثيفاً، وبدأ يجمع شتات فكره ويحيطه بغلالة من الواقع الأليم.. وانبثق نور خافت بدّد ظلام المستقبل المجهول إذ وفّقه الله في أن يعمل كاتباً في أعظم محل تجاري يملكه أحد الأثرياء.. وحتى لا يسيء إلى والده التجاري انتحل له اسماً آخر عرف به فيما بعد «صالح بن سعيد».

وأراد الله لهذه النفس التي تمردت وذاقت طعم الحرمان والشقاء أن تعود إلى صوابها.. فأخلص في عمله وأثبت كفاءة وجدارة بحكم خبرته في هذا الميدان.. وأعجب به رئيسه بعد أن رأى أمانته ووفاءه وحسن خلقه ولطف معاملته وأدبه وتمسكه بدينه وأداء الشعائر في وقتها.. فعينه في وظيفة أمين مخازن وأفرد له سكناً خاصاً يعيش فيه، وكان يحرص «عادل» «صالح» —الإسم الجديد الذي اختاره لنفسه— أن يذهب لصلاة الفجر في المسجد المجاور لداره، وأراحته حلاوة الإيمان.. وأخذ يستشعر عظم الذنب حين قادته أخطاء الماضي ونزوات الشباب إلى الطاعة العمياء للشيطان.. وأحسّ أنه ولد من جديد بعد حياة العذاب والكفاح.. وطلب من الله التوبة والغفران..

وبدأ يرسل لأسرته نفقاتهم الشهرية وبعض الهدايا.. وكان سعيداً في عمله الجديد موفقاً فيه حتى أصبح مضرب المثل بالنسبة لزملائه.. وأخذ يتنقل من وظيفة إلى أخرى حتى أصبح مديراً لفرع محلات هذا التاجر الكبير.. وأرسل في طلب أسرته لتعيش بجواره بعد أن أثث لهم منزلاً لائقاً.. وسعدت الزوجة الوفيّة بالأنباء السّارة التي كانت تصلها عن زوجها.. وطارت إليه مع أطفالها.. وكان لقاء حاراً محا كل آثار الماضي البغيض.

وبدأ «عادل» يرتقي سلّم المجد والرفعة.. حتى أصبح أمين سر صاحب المحلات التجارية يستشيره في كل صغيرة وكبيرة.. إذ أدرك التاجر الكبير أن هذا الشاب على جانب كبير من الذكاء وسعة الاطلاع والمعرفة والخبرة بالمسائل التجارية. وبفضل أفكاره النيّرة استطاعت تجارته أن تنمو وتزداد حتى أصبح تاجراً مرموقاً يشار إليه بالبنان.. واستطاع أن يفتح فروعاً لمحلاته التجارية في كثير من مدن المملكة.

وأحسّ التاجر الكبير بأن صحته في تدهور مستمر.. وأن المنيّة ستوافيه إن عاجلاً أو آجلاً.. وليس له أخوة يستطيعون أن يحملوا هذا العبء الكبير عنه.. فمن يرعى شؤون زوجته وأطفاله الصغار.. وفكر في «صالح» أو «عادل»، إنه الوحيد الذي يمكن أن يضع فيه ثقته ويختاره وصياً على زوجته وأولاده فهو إنسان مثالي نادر الوفاء، متدين مستقيم في سلوكه.. إنه الوحيد الذي يأمن جانبه.. وتذكر شيئاً مهماً كان قد نسيه.. فهذه التجارة الضخمة التي بحوزته الآن ليست ملكاً له.. وتذكر عقد الشركة الذي وقعه مع صديقه «سعيد بن شاهين» حين كان في جدة.. وكيف استطاع هذا التاجر المحنك أن يزوده بالمال على أساس أن يكون شريكاً له في تجارته وقام في تثاقل يفتح خزينته الخاصة ليخرج منها عقد الشركة الذي وقّعه مع صديقه، وبيد مرتعشة راح يقرأ بنود العقد.. ياإلهي.. إنها تعطي لشريكي الحق في مناصفة كل ما أملك من محلات تجارية.. ولكن.. أين أجد صديقي الوفي «سعيد»؟ لقد مات رحمه الله ولا أعلم إن كان له ورثة يعيشون الآن في خضم هذه الحياة..

ترى لو قدّر لي الموت.. ماذا يكون مصيري إذا أخفيت هذا السّر..؟ لقد أنساني

جشع الحياة أن أتذكر صديقي يوم مماته.. فلا أسأل عنه.. يا إلهي كم أشعر بالندم على ما فرطت!!. لا.. لا.. لابد أن أخبر أمين سري «صالحاً».. إنه من أهل جدة.. وربما عرف أسرة صديقي الذي أغفل الزمن ذكره.. بعد أن أضاع ابنه الخاسر كل ثروته و بدّدها كما وصل إلى مسامعي..

واستدعى التاجر الكبير «صالحاً»، وصارحه بما يعتمل في نفسه، ورغبته في أن يكون وصياً وأميناً على أسرته.. ثم صارحه بالسرّ الذي كان يحتفظ به في خزنته الحديدية ولا يعلم به أحد..

وأذهل النبأ المفاجىء «عادلاً».. حتى كاد يغمى عليه.. فإن معنى هذا العقد أنه سيصبح شريكاً لهذا التاجر.. وشعر بغصة في حلقه.. هل يصارح هذا التاجر بأنه الرجل الذي يبحث عنه «ابن سعيد شاهين» صديقه القديم وشريكه في هذه الثروة الضخمة..؟ وماذا يقول لو عرف الحقيقة؟. هل يثق به..؟ هل يحترمه و يصدقه..؟ وأطرق رأسه مفكراً.. وعجب التاجر الكبير من امتقاع لون أمين سرّه «صالح».. فقطع عليه حبال تفكيره قائلاً:

أرجوك يا بني إنني أدرك ما تفكر فيه.. كيف أهب نصف هذه الثروة لشريك لم يدفع فيها سوى مبالغ بسيطة.. ولكن تأكد يابني.. أنه لولا المبلغ الذي نفحني به صديقي الوفي.. لَمَا أصبحت في هذه المنزلة التجارية المرموقة..

أرجوك يا بني .. أن تدلني على أسرته لأهب لهم ما ورثوه عن عائلهم.. فهذا حق لهم ومن واجبي أن أرد لهم هذا الدين حتى ألقى ربي راضياً وشاكراً.. أرجوك يابني..

وفي حزن وألم .. راح «عادل» يسرد قصته على مسامع الرجل من البداية حتى النهاية وحتى يتأكد الرجل من صدقه.. أطلعه على حفيظة نفوسه الأصلية..

وكانت مفاجأة غريبة غير متوقعة.. وأحسّ التاجر الكبير براحة كبرى.. وحمد الله أن شريكه أهل للثقة والأمانة.. وقال: حمداً لله يابني.. لقد كان درساً لك قاسياً في الحياة.. ولكن الله يجزي الصابرين خيراً.





همام

يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين.. مربوع القامة.. حاضر البديهة.. سريع النكتة يجذبك بمنطقه السليم وأسلوبه العميق المقنع.. من رجال الأعمال الناجحين البارزين في المجال التجاري في داخل البلاد وخارجها.. تراه.. فيخيّل إليك أنه أجنبي عن هذا البلد لحديثه المشوب بلكنة شامية، وزيّه الإفرنجي الذي يبدو به دائماً.

وهو في الأصل ينحدر من سلالة عربية مجيدة، من قلب الجزيرة العربية..

أعجبني فيه كفاحه ومهارته الفائقة في التجارة.. قلت له كيف استطعت يا صديقي أن تحتل الصدارة في الميدان التجاري حتى أصبح اسمك يعرفه الدّاني والقاصي.. وأمست أسرتك لاتُعرف إلا بك فأنت كبيرها المفضل.. الحبيب إلى نفوسهم جميعاً لما تتصف به من إنسانية خالدة وحب كبير وتعاطف وود لأقربائك وأصهارك وموظفيك وخدمك؟. وأحسّ بذكائه مايدور بخلدي، وما يعتمل فيه من رغبة في التعرف إليه عن كثب.. كيف بدأ حياته ومضى في دروب هذه الحياة الطويلة، حتى تهيّأ له هذا المجد الكبير والسمعة الفائقة، ووجدها فرصة سانحة ليغوص في أعماق الذكريات، ذكريات الصبا والكفاح والجد الطويل.. وأطرق مليًّا يفكر مستجمعاً كل قواه ليستذكر النضال المجيد في هذه الحياة..

وعرفت أن جده كان واحداً من أبناء البادية الرحل الذين نشأوا على هذه الأرض الطيبة ثم هاجر إلى الشام ليتاجر فيها.. واستقرّ به المقام في إحدى قرى الشام النائية سعيداً مغتبطاً بالحياة التي يعيشها.. واقترن بفتاة من الشام أنجب منها والده الذي عاش ردحاً من الزمن وأنجب جيشاً من الأطفال الذكور والإناث.. وكان يأمل أن يعود إلى أرض الوطن ليساهم في بناء مجتمعه.. ولكن المنيّة وافته قبل تحقيق هذا الحلم الكبير..

وعاش الأبناء في كنف أمهم الحنون التي بذلت كل ما تملك من جهد ومال من أجل تربيتهم وتثقيفهم وتهذيبهم.

وكان «همام» رغم أنه الابن الثاني في سلالة الأسرة.. إلا أنه تميّز بالذكاء الخارق اللمّاح،وأحسّ بالشوق والحنين إلى أرض أجداده بعد أن صافح سمعه ما وصلت إليه البلاد من رقي وتقدم ونجاح في شتى المجالات.. وأراد أن يشارك في بناء صرح الأجداد.. ولم يكن ما تجمّع لديه من مال يكفي للرحلة إلى مهبط الوحي، والبلد الآمن المطمئن، ليعيش في رحابه.. و يعمل في خدمته بكل أمانة وإخلاص.. ولكنه لايملك الوسيلة للهجرة إلى موطن الأجداد.. واستطاع أن يجمع من كدّه وعرق جبينه مبلغاً من المال.. وجاء إلى موطنه الأصلي، كأي غريب حاجاً إلى بيت الله الحرام.. وأحسّ بالأمن والهدوء والطمأنينة والرغبة الجامحة في الاستقرار، وتحسّس «همام» جيبه ليرى إن كان ما تبقّى لديه من مال يتيح له مواصلة الحياة.. فوجد أن كل ما يملكه مبلغ ضئيل لا تزيد قيمته عن خمسمائة ريال وسأل نفسه هل يكفي هذا المبلغ لأعيش مواطناً حراً سعيداً في أرض الأجداد..؟

وأعمل كل فكره.. باحثاً متطلعاً عن مهنة يختارها ليشق بها طريقه في هذه الحياة.. كانت المهنة الوحيدة التي حذقها «همام» في بلاد الشام «الكهرباء» وراقت له الفكرة وأعجبته.. فالعمران قد بدأ يشق طريقه قدماً إلى الأمام.. والبلاد في حاجة ماسة إلى الأيدي الفنية العاملة.. بدأ يبحث جدّيًّا عن محل مناسب.. ووجد دكاناً صغيراً ملائماً في حي شعبي اختاره.. ولكن ما لديه من مبلغ سوف يستهلك في الإيجار وحده وأنّى له بتدبير ما يحتاج إليه المحل من تأثيث وأدوات.. وآلات كهربائية؟! ووفقه الله إلى شيخ وقور تطوّع بأن يمدّه بالمال مقابل أن يكون شريكاً له في مكاسبه وأرباحه.. ووجدها الفتى الطموح فرصة طيبة لتحقيق آماله.. وبدأ العمل الجدّي فاشترى من الآلات الكهربائية أقواها وأجودها صنفاً وزوّد محلّه بصنوف مختلفة من ثريّات الكهرباء.. واستأجر عمالاً وبدأ يدربهم على أعمال الكهرباء.. وكان يحاول أن يكون عمله متقناً جيّد الصنع مهما كلّفه ذلك من ثمن..

واستطاع أن يلفت إليه الأنظار بسمعته الطيبة وأخلاقه الدمثة ومعاملته الكيّسة وصنعته المتقنة.. وبدأ الكل يسعى إليه.. أصحاب الشركات المعمارية وذوو الأملاك ومتعهدو حفلات الزفاف.. وبارك الله في تجارته.. فأثمرت وآتت أكلها أضعافاً.. وبدأ رصيده ينمو ويكبر وأرباحه ومكاسبه تزداد يوماً بعد يوم.. وكان سعيداً في عمله يوزع أرباحه مناصفة بينه وبين شريكه الشيخ «عمار»..

ومضت سنوات وتجارته تنمو وتزداد.. كان سعيداً في عمله.. محباً له حتى أصبح محلّه ذاشهرة ذائعة الصيت.. وجاء يوم لقي الشيخ «عمار» شريكه في تجارته وجهِ ربه.. فحزن لمماته ودعا أبناءه لأن يستمروا في الشركة معه.. إلا أن أبناءه داخلهم الرّيب والشكوك في «همام».. ولكنهم لم يصارحوه بما في نفوسهم واكتفوا بمراقبته..

وذات يوم .. فوجىء «همام» بشركائه يطالبونه بتدقيق حسابات المحل بعد أن صارحوه بما في نفوسهم.. وأذهلت «هماماً» المفاجأة التي لم يكن يتوقعها.. وكانت صدمة قاسية لم يتوقعها من أناس بذل لهم كل إخلاصه وأمانته.. ورأى من الخير أن يفض الشركة في الحال.. وجيء بمحاسب قانوني لتصفية المحل وثبتت براءة «همام» ونزاهته.. وندم الشركاء على تصرفهم السيء تجاه الإنسان الطيب الذي خدمهم بكل إخلاص..

وطلبوا منه الصفح والمعذرة.. ولكنه وهو العربي الحر.. أبى أن يستمر في هذه الشركة الخاسرة وفض عقد الشركة، وبدأ يعمل لحسابه الخاص.. وزاده الله سعة في الرزق.. وأصاب خيراً كبيراً وكان محبوباً من عماله وموظفيه لحبه وعطفه عليهم وبرّه بهم كلما جاد الله عليه بربح..

ولم ينس أسرته النائية.. فكان يغدق عليهم مما أفاء الله عليه من رزق وخير واسع.. وكان أحرص الناس على تأدية الحقوق والواجبات المفروضة عليه في صمت وبلا ضجّة تجاه الفقراء والمساكين من جيرانه ومن يتعرف عليهم أو يدلهم عليه أصدقاؤه.

وبدأ «همام» الشاب النشيط يتطلع إلى آفاق عليا تدرّ عليه مزيداً من الربح والرزق الحلال.. وتكسب بلاده سمعة طيبة في المجال الدولي.. ووجد المجال خصباً للعمل التجاري في أكثر من ميدان بعد أن زار بلداناً كثيرة في الشرق والمغرب واطلع بنفسه على مدى ما أحرزته هذه البلدان المتقدمة من تقدم في المجال الصناعي والتجاري.. وبدأ يرسم الخطوط العريضة لعمل مشروع ضخم يتفق وما يحس به من ميل ورغبة واستعداد.

وقبل أن ينفذ المخطط الذي رسمه .. بدأ يدرس مشروعه عن كثب.. ليزداد تجربة وخبرة متنقلاً من بلد لآخر.. ومن مصنع لآخر شهوراً طويلة، ثم عاد إلى بلاده، وقد امتلأ فكره الثاقب بمعلومات وافية عن مشروعه التجاري ورأى أنه من الخير أن يبدأ مشروعه على مراحل.. فاختار له محلاً مناسباً في إحدى الأحياء الراقية.. وبدأ ينفذ مشروعه في خطوات رتيبة منظمة، فبدأ ينتقي أجمل ما وقعت عليه عيناه من موديلات حديثة، يمكن أن تهيء للمنازل الأناقة والجودة والراحة واستطاع بما أوتي من لباقة في الحديث، وقوة في الاستمالة، والإقناع أن يبيع كل ما يستورده أولاً بأول وانهالت عليه الأرباح أضعافاً مضاعفة.. وأثار هذا النجاح المنقطع النظير حماس ذوي العقول المحدودة من التجار ممّن لا همّ لهم إلا التقليد الأعمى، والمنافسة في نفس الصنف الذي يستورده.. ولكن هذا لم يؤثر عليه ولم يثن عزيمته في التحول إلى نوع آخر في التجارة..

فكان يستورد ما ندر وجوده، مما لا يدركه إلا أصحاب الذوق الرفيع من عملائه ومحبيه، ورغم مادرّ عليه هذا العمل التجاري من أرباح خيالية، زاد من رصيد ثروته.. إلا أنه شعر بأنه لم يحقق بعد ما يطمح إليه من آمال ورغبات كبار، في هذه الحياة، إنه يحسّ بأنه أسعد الناس طُرًّا بين التجار من مواطنيه ولكنه يريد أن يقوم بعملٍ خالد، فيه النفع الكبير لوطنه ومواطنيه، إنه يؤمن بأن الثراء الواسع والإمكانيات المادية، لابد أن تسخّر لمصلحة ما فيه خير وطنه ونفعه.. وإلا كانت أنانية ذاتية مزرية.. وما قيمة المال والجاه والثروة الطائلة.. إذا لم تستغل لما فيه رفاهية مواطنيه ورفعة بلده..؟

إن معظم المشاريع التي في بلاده تشرف عليها الدولة، وتنظمها، فهل هذا يكفي...؟ إنه لاتزال ثمة مشاريع أخرى، لها أهميتها.. يمكن أن يساهم بها الأثرياء، ممّن أنعم الله عليهم بالمال الوفير، وهو واحد منهم، والدولة لاتبخل على أي مشروع.. بالمساعدة.. والمساندة... فلماذا لايدعو ذوي الثراء للمساهمة معه في أكثر من مشروع وطني.. صناعي.. أو عمراني.. أو تجاري.. إننا لسنا أقل من غيرنا ممّن سبقونا في الحضارة، والمدنية، تفكيراً في هذا المجال الخصب، الذي سوف نجني من خيره الكثير بالنسبة لنا ولمواطنينا..

وأعجبته الفكرة.. وتحمّس لها .. بكل ما أوتي من قوّة، وبدأ يخطط لها، ويضع أمامه أكثر من مشروع ويدرسه في اهتمام بالغ. أهمية المشروع، فوائده إمكانياته، مدى نجاحه، رأس ماله.. ووقع اختياره على واحد منها.. مشروع صناعي جبّار.. وضع له خطوطه الأساسية، عن خبرة ودراسة مع الخبراء من رجال الأعمال العالميين..

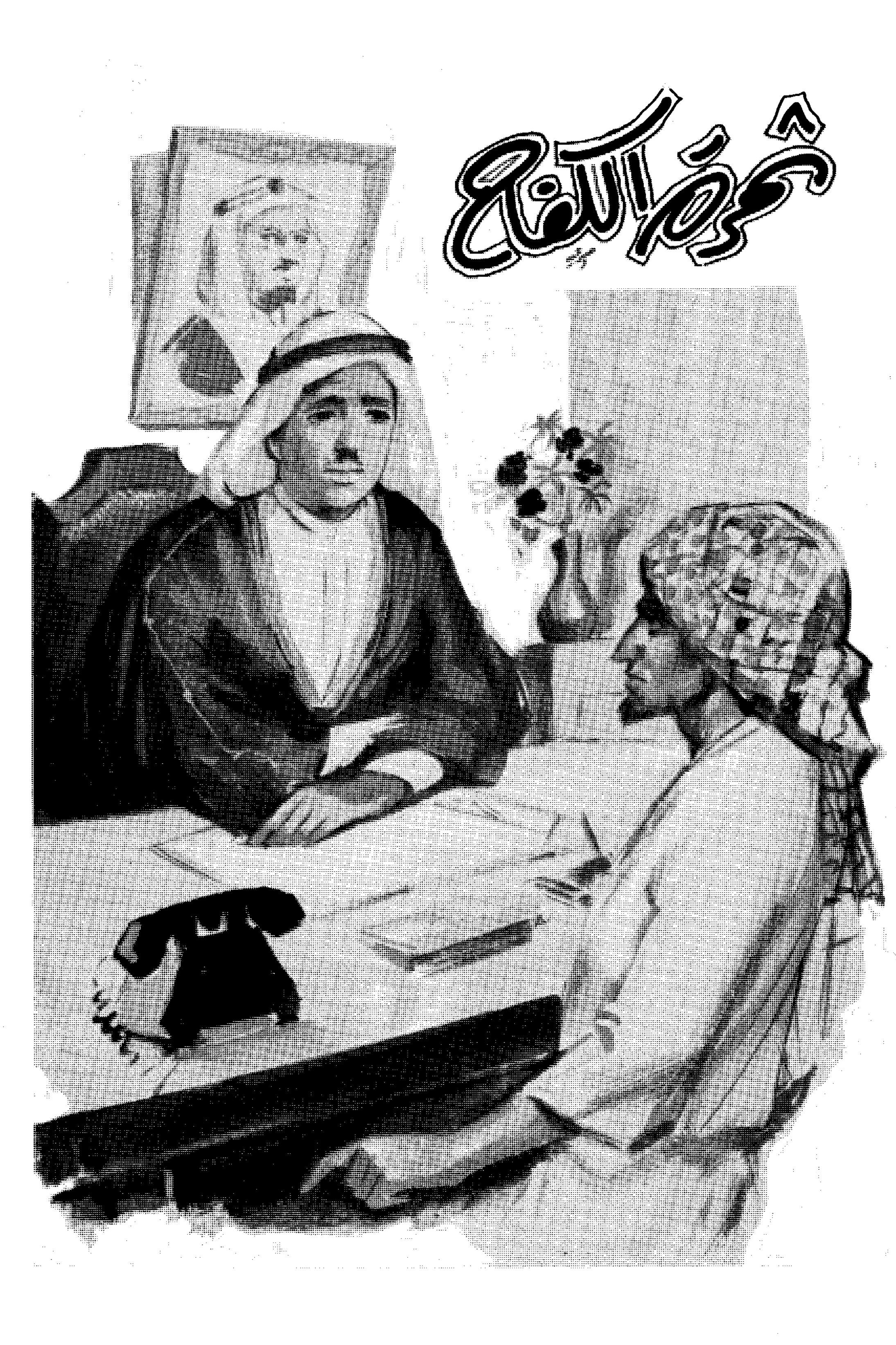
وبدأ في نشاط متوثب، يدعو ذوي الثراء من أصدقائه، يساهم معه في مشروعه الجبار، وآلمه أن يجد الصدّ والاعتراض وعدم الاقتناع.. الكل يخشى أن ينهار هذا المشروع، ويتصدّع، فلا تصيبهم إلا الخسارة الفادحة. فيضيع عليهم بعض ما اكتنزوه من ثروات.. ولكنه لم ييأس، إنه واثق من نجاح مشروعه، ومدى نفعه، وفائدته لبلاده وامته وما يحققه من أرباح في المستقبل، وبدأ يوالي اتصالاته بالشركات العالمية التي يمكن أن يعتمد عليها في تمويل مشروعه الضخم، ووجد منها استعداداً طيباً، إنها على استعداد لأن تقبل مواطنيه وتدرّبهم على الأعمال الفنية، وتجنّد كل إمكاناتها الفنية، لخدمته، ووجد حماساً وترحيباً من أولي الأمر، في مساندته ومؤازرته، وأحسّ بارتياح عميق، وهو يرى نتيجة عمله المتواصل تؤتي ثمارها الطيبة.. وبدأ الأصدقاء من الأثرياء يؤمنون بنجاح المشروع، ومدى الكسب الكبير الذي سوف يحققه.. وعرضوا عليه أن يساهموا معه ولم يكن «همام» بالرجل الأناني، فأفسح لهم الطريق لمشاركته هذا العمل الوطني الكبير..

قلت له، وقد رأيته في ساحة المطار يحمل في يده حقيبة، وهو متهلّل الأسارير، منشرح النفس راضي البال، قرير العين.. إلى أين ياصديقي..؟ قال وعلى محياه ابتسامة مشرقة.. إلى أوروبا ياصديقي لتحقيق الحلم الكبير الذي عشت، أنتظر تحقيقه طيلة كل هذه السنوات، قلت: لعلّه مشروعك الصناعي الكبير..

قال: هو ذاك.. يا صديقي وأرجو من الله التوفيق والسّداد.

وودعت المواطن الحر (هماماً) العامر قلبه بالحب الكبير، لبلاده وأمته ووطنه، وأنا أتمنّى من صميم فؤادي أن أرى مثل هذه الروح العظيمة تسري في نفوس ذوي الثراء من مواطنينا لتحقق لبلادنا الحبيبة ماتصبو إليه من رقيّ وتقدم..







ثمرة الكفاح

في أسمال بالية رثّة.. تكشف عن جسم نحيل ضامر.. وعينين غائرتين تعلوهما صفرة داكنة، ومظهر ينم عن فقر مدقع.. وقف ينتظر دوره.. و بيد مرتعشة قدم إليّ عر يضة يطلب فيها تعيينه بإحدى وظائف الخدم الشاغرة.. ونظرت إليه أفحصه وأتأمله.. لقد كانت كل معالم البؤس والشقاء ترتسم على محياه.. ورثيت لحاله إنه شاب تبدو على ملامحه مخايل الذكاء وأصالة الطبع، وهو أحق بالعون من غيره.

إلا أنني ساورتني المخاوف في أن يكون هذا الهزال البادي عليه نتيجة مرض عضال أو معدٍ قد يودي بحياته وحياة من يقوم بخدمتهم.. فأشرت عليه بالذهاب إلى الطبيب ليقوم بإجراء الكشف الطبي عليه، وأدرك ما يجول بخاطري.. وقال في نبرة حز ينة. وهل من الضروري إحالتي للطبيب؟.؟ صدقني إنني لم أشعر بأي ألم أو مرض طيلة حياتي.. إنه الجوع الكافر الذي ساقني إليك بعد أن أصبحت وحيداً في هذه الحياة، منذ أن قدر الله لوالدي أن يذهب، وكل ما يملكه ضحية سيل جارف ابتلعه وألقاه في اليم.. وأحس كأنه يجتر ذكر يات الماضي الحز ين المؤلم.. فانحدرت دموعه ساخنة من مآقيه.. وعزّ عليه هذا الموقف وهو العر بي الأصيل المعتز بنفسه وكرامته.. واندفع نحو الباب مسرعاً لا يلوي على شيء. وشعرت بآلام الفتى البدوي الذي ظن أني ربما قد أسأت إلى شعوره.. فأرسلت في أثره موظفاً لإقناعه ومساعدته في إكمال ما تتطلبه إجراءات التعيين. وتوظف «حازم».. الشاب البدوي كخادم في إحدى المدارس. و بدأ يسترد صحته ونشاطه الجسمي، و يتفانى في إخلاص وجدٍّ فيما أوكل إليه من عمل حتى أضحى محبوباً بين أسرة المدرسة..

وكان أحب شيء إلى نفسه أن يرى أطفال المدرسة الصغار وهم يحملون كتبهم في

غدوهم ورواحهم والبشر يطفح على محيّاهم.. و يستمع إليهم وهم يذاكرون دروسهم في الصباح قبل أن يدق جرس الدخول إلى الفصول، وكان يلذّ له أن ينصت إلى المعلمين وهم يلقّنون التلاميذ دروسهم.. و يغضب حين يرى تلميذاً يثير الفوضى أو يخلّ بالنظام داخل فصله و يسرع إلى مراقب المدرسة أو مديرها ليبلّغه و يلفت انتباهه..

وشغرت يوماً وظيفة المراسل بالمدرسة بعد انتقال المراسل السابق إلى مدرسة أخرى نائية لإهماله في عمله، وأحس حازم أنها الوظيفة الملائمة التي تتيح له أن يؤدي أكبر خدمة للآباء والمدرسة والطلبة.. ولكن هذه الوظيفة رغم أن راتبها مماثل لراتبه.. إلا أنه لاتتوفر فيه الصلاحية لشغلها. فالمراسل لابد أن يكون ملمًّا بالقراءة والكتابة.. وهو يجهل كل شيء عنها.. وأحس برغبة وشوق جارف إلى التعليم ولكن هل يمكن لشاب بلغ الثلاثين من عمره أن يواصل تعليمه..؟ وهل حقًّا ما يقال «التعليم في الكبر كالنقش في الماء..؟»

وطافت بخياله صورة ماضي طفولته.. وهو يجوب الصحراء يحمل في يده عصاه ليهش بها على غنمه يتنقل حيث الكلأ والمرعى.. لا يستقر في مكان وهو لا ينسى ذلك اليوم العصيب الذي جاء فيه معلم القرية إلى والده يطلب منه أن يلحقه بالمدرسة الحكومية.. و يلح في الرجاء والطلب.. بينما راح والده يهزأ و يسخر منه حتى نفد صبر المعلم و بلغ يأسه.. وكم كان يومها معجباً ببراعة أبيه في السخرية والنيل من ذلك المعلم الطيب الناصح.. وتمنى أن تجود الحياة برؤية ذلك المعلم ذي القلب الطيب ليقبّل يديه و يطلب منه الصفح والغفران.. فلو قبل والده يومذاك النصح.. وسمح له بالتعليم لأصبح الآن إنساناً له كيانه القوي في هذه الحياة.. وتذكر «سرحان».. و«مسعود».. و«جمعان»، رفقة الصبا الذين استمع آباؤهم لنصح المعلم وسمحوا لهم بالانتظام في المدرسة.. ترى أين وصل أولاد الرفقاء في تعليمهم..؟

ألا تبًّا للجهل .. ألا تبًّا للجهل ما أقبحه!!. بودي لو كان هذا الجهل اللعين شيئاً مجسّماً ماثلاً أمامي الآن لأحطمنه بيدي ولأمزقنه بأسناني وأقضي عليه بكل قوتي..

إنه الطامة الكبرى... إنه الخسران والضلال المبين.. إنه السبب فيما أعانيه الآن من شقاء وحرمان من نعمة العلم والمعرفة..

ترى.. هل أظل قانعاً راضياً بهذه الحياة الرتيبة..؟ لا.. لا.. إنه الجهل.. إنه الجهل بعينه الذي يعيش في صدري الآن.. ولكن كيف السبيل إلى درب المعرفة والنور..؟ والقضاء على هذا الجهل والانتقام منه..

وأطرق طويلاً سابحاً في أحلامه.. يفكر في طريقة يهتدي بها ليقضي على الجهل الذي يعشش في أجواء نفسه.

ونسي ما كلفه به المدير من أعمال النظافة.. وصادف أن كان مراقب المدرسة الجديد يتفقد أحوال النظافة.. فإذا به يجد «حازماً» قد افترش الأرض، وكأنه يحادث نفسه بينما المقشة تتأرجح في يده.. وأخذه العجب من إهمال «حازم» وعدم عنايته.. فاقترب منه قائلا:

ما شاء الله.. ما شاء الله.. ما هذا الذي تفعله يا حازم..؟ هيه هذا إهمال حازم.. هاه.. حضرة المراقب.. معذرة سأنظف كل شيء الآن..

المراقب : هيه .. هكذا أنتم أيها الخدم .. يبدو عليكم النشاط في البداية ثم تركنون إلى الكسل والخمول..

حازم : أرجوك يا حضرة المراقب مستحيل أن أركن إلى الكسل.. أو أهمل في واجبي..

المراقب : كفى .. لم أعد أحتمل هذه الاعتذارات الواهية.. تعال معي إلى المدير.. إنه الوحيد الذي تخشونه.. هيا..

المدير : ادخل ..

المراقب : إن هذا الخادم يا سيدي غاية في الإهمال.. تصور انه حتى الآن لم ينجز ما عليه من عمل..؟ رجوتك ألاّ ترأف بهذا الصنف،فأمثال هؤلاء لا ينفع معهم إلاّ الشدة.

المدير : « حازم » مهمل..؟ هذا غير معقول.. غير معقول.

المراقب : لقد أبصرته يا سيادة المدير بنفسي سارحاً مفترش الأرض لا يقوم بواجبه كما ينبغي.. وإلا ما الذي يدعوني إلى اتهامه؟

المدير : أنت قد لا تعرف «حازماً» يا حضرة المراقب.. لأنك لم تباشر العمل إلا منذ أسبوع.. إنه أقدم مستخدم هنا في المدرسة.. ومثال للنشاط في عمله. اتركه لي وانصرف لشؤون المدرسة..

المراقب : أمرك يا سيدي المدير.

وفي صمت ينمّ عن حزن عميق.. راح «حازم» يقص على المدير ما كان يفكر فيه.. معتذراً إليه عمّا بدا منه من تقصير إزاء عمله..

وأعجب المدير بـ«حازم»، إنه لا يزال في عنفوان شبابه، ويستطيع أن يشق طريقه في التعليم.. فإن طاقات الذكاء التي يتمتع بها كفيلة بأن تهبه ما يتمناه وتحقق له آماله. فهذه مدارس محو الأمية التي بدأت تنتشر وتغزو كل مكان والتي تمدها الدولة بكل الإمكانيات.. إنها المكان المناسب لأمثال «حازم»، وعجب كيف غاب عن ذهنه ألاّ يطالب بفتح مدرسة لمحو الأمية في هذا الحي الكبير الذي يزخر بالأميين من طبقة العمال والخدم الذين لا هم لهم إلا التسكّع في المقاهي والتندر بأحاديث تافهة.. وشد المدير على يد «حازم» وصارحه بما اعتزم عليه من فتح مدرسة لمحو الأمية..

وبدأ يسعى مع المسؤولين في الحصول على فتح هذه المدرسة وتحقق له ما أراد.. وبدأت المدرسة تستقبل الأفواج من الأميين ممّن حرموا نعمة التعليم.. وفي همّة ونشاط بدأ حازم يتذوق رحيق العلم وحلاوته فأنهى مرحلة دراسة محو الأمية.. ثم التحق بقسم المتابعة.. وحصل على الشهادة الابتدائية ونال وظيفة المراسل التي يتمناها.

ولم ييأس .. ظل يكافح ويناضل حتى حصل على الشهادة المتوسطة.. وتقدم لإحدى مسابقات الوظائف الإدارية الشاغرة.. ونجح.. وبدأ يواصل العمل الإداري

وعلى شفتيه ابتسامة الأمل والنصر بما حققه.. إنه يحس أنه بدأ انطلاقة جديدة في حياته.. بعد حياة الشقاء والتعاسة، إنه لم يعد ذلك الخادم الذي يؤمر ليقوم بأي عمل يكلف به.. لا يستطيع أن يقول لا..

أما الآن.. فهو موظف له احترامه وتقديره.. ولرأيه وزن واعتبار.. وشعر بسعادة غامرة ونشوة بالغة.. وأطرق ساهماً يستعرض ماضي حياته.. خيره وشره.. وراح يسأل نفسه هل يكفي هذا القدر من التعليم الذي وصلت إليه..؟ أم أتابع دراستي الثانوية.. فالجامعية..؟

وهل يمكن التوفيق بين عملي الجديد ومتابعة الدراسة..؟ وأحس بفداحة العبء.. عبء العمل الوظيفي وعبء المذاكرة والتحصيل.. وفضّل أن يتفانى ويخلص في عمله.. واستطاع أن يكسب ثقة رئيسه بما حققه من نجاح وتوفيق في عمله في مدى عام واحد.. ولكن الحنين إلى العلم والرغبة في الاستزادة منه عاوداه من جديد.. وتلفت حوله.. فرأى بعض زملائه في دوائر أخرى استطاعوا أن ينتظموا في الدراسة ليلاً بالمدرسة الثانوية التي هيأتها وزارة المعارف لمن فاتهم ركب التعليم الثانوي.. وصارح رئيسه بما كان يعتلج في نفسه ووجد التشجيع والترحيب.. وتطوع أحد زملائه ممّن يكنّ له الحب والتقدير بأن يخفف عنه عبء العمل ويمد له يد العون ليستمر في الدراسة الثانوية ليلاً.. وتهيأ له ما أراد.. وظل يوالي الليل والنهار في عمل دائب.. مكبًّا على المذاكرة والتحصيل.. محافظاً على الانتظام في الدراسة.. حريصاً على الاستفادة من مدرسيه.. لا تفوته شاردة،ولا واردة إلا وسأل عنها.

وبعد ثلاثة أعوام من الكفاح المرير في الدراسة.. استطاع أن يتقدم لامتحان المرحلة الثانوية وكان ترتيبه الأول بين طلبة المنازل.. وكانت فرصة بالغة.. وأحسّ أنه بدأ يخطو نحو القمة.. قمة المجد والعلياء.. ولكن قمم العلم والمعرفة شامخة.. وطريق الوصول إليها شاق وعسير.. يتطلب المزيد. والبذل والتضحية والتفاني.. إنه الطريق إلى الجامعة.. والدرب طويل يحتاج إلى عزيمة وصبر وإرادة قوية وطاقة جبارة وإمكانات مادية قد لا يقوى عليها.. فإن ما ادخره من كدّه وعرق جبينه قليل،لا يكفيه

مؤونة هذه الرحلة الشاقة.. وهو قد جاوز الأربعين من عمره وقد خط الشيب رأسه.

فهل يواصل حياة العلم ويهجر العمل حتى يتفرغ بالكامل للدراسة الجامعية.. ولكن من المحال أن يوفّق بين العمل والدراسة في آن واحد.. لابد أن يختار طريقاً واحدة.. وتذكر قول شاعر المغرب أبي القاسم الشابي:

ومن يتهيّب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

واستقر رأيه على أن يكمل دراسته الجامعية مهما كلّفه ذلك من ثمن.. وقدم استقالته في اليوم الثاني من عمله.. وتطلع إليه رئيسه مشدوهاً.. إنه يدرك أن «حازماً» موظف مثالي ينتظره مستقبل باسم في عمله الوظيفي. ولا يوجد من يخلفه في كفاءته وأدبه وعمله وخلقه.. إنه خسارة لاتعوض.. وحاول أن يثنيه عن عزمه.. ولكن «حازماً» صلب الرأي إذا عقد العزم على شيء واقتنع به فمن الصعب أن تلين قناته.

ومضى حازم يحث الخطى في صمود وثبات وشجاعة نادرة لتحقيق ماتصبو إليه نفسه من آمال كبار آملاً في أن ينال ثمرة كفاحه الطويل..

ترى .. هل تحقق لحازم البدوي حلمه الكبير..؟
لقد أثبتت أيام النضال والصراع التي عاشها حازم.. أن لا مستحيل في هذه الحياة أمام الإرادة القوية والجهاد المستميت في طلب العلم..

فمن جدّ وجد ومن سار على الدرب وصل..

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فهرست



إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلا	الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	الأستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	الدكتور محمود محمد صفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	الدكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	الدكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* الحضارة تحدٍّ	الدكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر الزمخشري
* لحظة ضعف	الأستاذ فؤاد صادق مفتي

* الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ	الأستاذ حمزة بوقري
* أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد	الأستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
* نبض ..	الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر
* السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
* قصص من سومرست موم	الأستاذ عزيز ضياء
* عن هذا وذاك	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
* فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
* نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل

تحت الطبع :

* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* قصص من طاغور	الأستاذ عزيز ضياء
* السنيورا (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* التاريخ العربي وبدايته	الأستاذ أمين مدني
* تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* أيامي ..	الأستاذ أحمد السباعي
* ماما زبيدة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز
* مدارسنا والتربية	الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
* جسور إلى القمة	الأستاذ عزيز ضياء
* هكذا علمني وردزورث	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

* عام ١٩٨٤ لجورج أورويل — الأستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد — الاستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* خواطر جريئة — الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — الشيخ حسين باسلامة
* الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
* قضايا .. ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
* كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
* ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز — الأستاذ محمد علي مغربي

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان زهران، الدكتور محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
* الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* مبادىء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للروايات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
* مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
* شعراء التروبادور — الدكتورة مريم البغدادي

تحت الطبع :

* أمراض الأذن والأنف والحنجرة	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
* النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* هندسة النظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبيد الحي رضوان



صدر منها :

* حارس الفندق القديم	الأستاذ صالح إبراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي	الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)	
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	
* تسالي	الدكتور حسن يوسف نصيف
* مجلة الأحكام الشرعية (دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد ابراهيم أحمد علي
* النفس الإنسانية في القرآن الكريم	الأستاذ ابراهيم سرسيق
* خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
* واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد

صحة العائلة في بلد عربي متطور — الدكتور زهير أحمد السباعي

تحت الطبع :

* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الأستاذ محمد أمين ساعاتي
* القرآن .. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكاندي
* ألــوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطر وموسيقى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — الدكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
* مساء يوم في آذار — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
* النبش في جرح قديم — الأستاذ السيد عبد الرؤوف
* الموت والابتسامة — الأستاذ عبد الله باقازي
* مواسم الشمس المقبلة — الأستاذ محمد علي قدس

رسائل جامعية

تحت الطبع :

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتّي، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها :

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتاب للناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع :

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.

